قضايا الدين والحياة

رؤية عصرية

إعداد

الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

إشراف وتقديم

د.محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

١٤٤٢هـ/٢٠٢١ م

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

الإشراف التحريرى

د. محيى عبد الحي

الإخراج الفنى

مرفت عنتر النحاس

تصميم الغلاف

نسرين كشك

المراجعة اللغوية

د. حسن أحمد خليل

المتابعة

شريف عبد العزيز

الطبعةالأولى: للهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢١

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل – رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدى: ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلى ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

قضايا الدين والحياة

رؤية عصرية

إعداد

الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

إشراف وتقديم

د.محمد مختار جمعة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٠٩ / ٢٠٢١

I.S.B.N 978 - 977 - 91 - 3027 9

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة، بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه فى المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظ للهيئة العامة للكتاب .يحظر إعادة النشر أو الاقتباس بأية صور إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

[هود: ٨٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن العلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون، إنَّ تديُّنًا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يُسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح، وإن من يتوهمون صراعًا لا يجب أن يكون بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتمًا إما أنهم لا يفهمون الأديان فهمًا صحيحًا أو لا يعون

مفهوم الدولة وعيًا تامًّا، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعتهما معًا أو لطبيعة العلاقة بينهما.

الدين والدولة لا يتناقضان، الدين والدولة يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا، الأديان رحمة، الأديان سماحة، الأديان إنسانية، الأديان عطاء.

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرَّد ولا محتاج.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج، والتميز والإتقان، ويطاردان البطالة والكسل، والإرهاب والإهمال، والفساد والإفساد، والتدمير والتخريب، وإثارة القلاقل والفتن، والعمالة والخيانة.

ومن هذا المنطلق تأتي معالجة هذا الكتاب لعدد من القضايا الفكرية والحياتية والمجتمعية تشمل: أهمية التخطيط في حياة الفرد والمجتمع، وحماية الشأن العام والمصلحة العامة، ومفهوم عهد الأمان في العصر الحاضر، وفروض الكفايات ودورها في تحقيق التوازن المجتمعي، وترتيب الأولويات وأثره في حياة الفرد والمجتمع، ورعاية المسنين وحماية حقوقهم، والضوابط الشرعية للإنجاب، وحق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة، وخطورة الإدمان والمخدرات على الفرد والمجتمع، وضوابط الأسواق وآدابها، والإتقان سبيل الأمم المتحضرة، بما يؤكد عدم التعارض بين الدين والحياة.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د. محمد مختار جمعة مبروك

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

أهمية التخطيط في حياة الفرد والمجتمع

إنّ الله ﷻ لم يخلق الإنسان عبثًا، بل جعل له في الحياة رسالةً، وهدفًا يسعى لتحقيقه، قال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون، الآيتان ١١٥، ١١٦].

وهذا الهدف لن يتحقق إلا بتدبيرٍ وإعدادٍ وتخطيطٍ، فالإنسان الذي يسير على غير هدى لا يعرف له وجهة، ولا يدرك له غاية، فهو إنسانٌ تتعاوره الضربات لتسقطه صريع المحن، بائس الحال، شقي النفس، قليل الإنجاز أو عديمه.

قال عمر ﷺ: «إِنِّي أَكْرَهُ الرَّجُلَ أَنْ أَرَاهُ يَمْشِي سَبَهْلَلًا» أَيْ: لَا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا فِي أَمْرِ الآخِرَةِ .(الآداب الشرعية لابن مفلح)، وقد صح في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغ» (صحيح البخاري) .

والتخطيط للمستقبل أخذٌ بالأسباب، وهو لا يتنافى مع التوكل على الله ﷻ، فلا حرج على المسلم أن يقول: «إن شاء الله سأفعل كذا»، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الكهف، الآيتان ٢٣، ٢٤]، وقد أشار القرآن الكريم في قصة ذي القرنين إلى أنه أخذ بالأسباب، وخطّط للمستقبل، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [سورة الكهف، الآيات٩٣-٩٧].

وفي قصة نبي الله يوسف ﷺ كان التخطيط سببًا لنجاة البلاد والعباد من مجاعة ومُهْلكة، وخطر

محدق، قام بذلك نبي الله يوسف ﷺ في خطة استغرق تنفيذها خمس عشرة سنة، وذلك في تأويل يوسف لرؤيا الملك كما حكى القرآن الكريم على لسانه في قوله ﷻ: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [سورة يوسف،الآيات ٤٧ - ٤٩].

لقد وازن سيدنا يوسف ﷺ بين الإنتاج المتقن والعمل الدءوب والاستهلاك الرشيد، والادخار المحكم، لقد أدرك المشكلة ففكر في الحلِّ ولم يبخل به على من سجنوه ظلمًا وعدوانًا، فإنّ المصلحة العامة عنده مقدّمة على المصلحة الخاصة، وهذه دروس بالغة الأهمية، فلا ينبغي الاكتفاء بعرض المشكلة فقط والوقوف عندها، بل ينبغي السعي لإيجاد المخرج من الأزمة.

ومن أراد أن يتعلم التخطيط فليتأمل هجرة النبي ﷺ فقد كان ﷺ نموذجًا للقائد والمعلِّم، فتراه

وهـو في رحلـة الهجـرة يخطـط ويدبـر ويثـق في نـصر اللهﷻ أولاً وأخـيرًا، إنـه يـأتي بعـلي بـن أبـى طالـب ﷺ؛ لينـام في فراشـه عـلى سـبيل التمويـه، ويسـلك طريقًـا وعِـرًا غـير مأهـول ولا معتـاد، ويختبـئ في الغـار حتـى يهـدأ الطلـب عليـه وعـلى صاحبـه، ويدبـر مـن يأتيـه في الغـار بالأخبـار والطعـام، ومـن يعفـي عـلى الآثـار، ويحسـن انتقـاء مـن يقـوم بـكل مهمـة، وهُـو في هَـذا كلّـه متـوكلٌ عـلى اللهﷻ، مُعلنًـا أنـه في معيـة اللهﷻ، فيقـول لصاحبـه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سـورة التوبـة، الآيـة ٤٠].

ومـن حسـن التخطيـط والأخـذ بالمشـورة معًـا مـا كان منـه ﷺ في يـوم بـدر حـين قـال لأصحابـه: «أَشِـيرُوا عَـلَيّ فِي الْمَنْـزِلِ» فَقَـالَ الْحُبَـابُ بْـنُ الْمُنْـذِرِ: يَـا رَسُـولَ اللهِ أَرَأَيْـتَ هَـذَا الْمَنْـزِلَ أَمَنْـزِلٌ أَنْزَلَكَـهُ اللهُ فَلَيْـسَ لَنَـا أَنْ نَتَقَدّمَـهُ وَلَا نَتَأَخّـرَ عَنْـهُ أَمْ هُـوَ الـرّأْيُ وَالْحَـرْبُ وَالْمَكِيـدَةُ؟ قَـالَ: «بَـلْ هُـوَ الـرّأْيُ وَالْحَـرْبُ وَالْمَكِيـدَةُ». قَـالَ فَـإِنّ هَـذَا لَيْـسَ بِمَنْـزِلٍ، انْطَلِـقْ بِنَـا إِلَى أَدْنَـى مَـاءِ الْقَـوْمِ فَـإِنّي عَـالِمٌ بِهَـا وَبِقُلُبِهَـا، بِهَـا قَلِيـبٌ قَـدْ عَرَفْـت

عُذُوبَةَ مَائِهِ وَمَاءٌ كَثِيرٌ لَا يَنْزَحْ ثُمّ نَبْنِي عَلَيْهَا حَوْضًا وَنَقْذِفُ فِيهِ الْآنِيَةَ فَنَشْرَبُ وَنُقَاتِلُ وَنُغَوّرُ مَا سِوَاهَا مِنْ الْقُلُبِ.(سيرة ابن هشام).

وفى يوم أحد يدير ﷺ المعركة باقتدار حقّق به المسلمون النصر في أول المعركة، وهو يخطط للميدان تخطيطًا تميز بالمرونة، فقد انسحب عبد الله بن أبيّ ابن سلول بثلث الجيش قبل بداية المعركة، ومع ذلك يعيد النبي ﷺ توزيع الجيش ليسيطر على الميدان، ويوزع المسلمين على أماكن القتال، وعندما خالف المسلمون الخطة دارت عليهم الدوائر، ففي حديث الْبَرَاء رضي الله عنه قَالَ: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنْ الرُّمَاةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عبد الله بن جبير رضي الله عنه وَقَالَ:«لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا» فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ، فَقَالَ عَبْدُ الله، عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَا تَبْرَحُوا فَأَبَوْا،

فَلَـمَّا أَبَـوْا صُرِفَ وُجُوهُهُـمْ فَأُصِيـبَ سَـبْعُونَ قَتِيـلًا». (صحيـح البخـاري).

وفي يـوم الخنـدق يخطـط ﷺ ويستشـير أصحابـه، ويأمـر بحفـر الخنـدق حـول المدينـة (سـيرة ابـن هشـام)، وهـو أمـر لم يكـن معلومًـا في خطـط العـرب في القتـال؛ ليحافـظ عـلى الدولـة مـن الأعـداء المتربصـين بها، المحاصريـن لهـا، حتـى كشـف الله غمهـم، وأزاح همهـم.

وإن مـن حُسْـنِ التخطيـط حُسْـنَ توظيـف المهـارات، بـأن تضـع الرجـل في موضعـه المناسـب ليحسـن العمـل، يظهـر ذلـك جليًّـا مـن خـلال عـدة مواقـف للنبـي ﷺ نذكـر منهـا:

اختيـاره لأسـامة بـن زيـد رضي الله عنهما قائـدًا لجيـش مـن جيـوش المسـلمين عـلى الرغـم مـن صغـر سـنه. (سُـنن أبي داود).

ترتيبـه لقـادة الجيـش في يـوم مؤتـة؛ لأجـل تحقيـق النـصر عـلى الـروم، حيـث وضـع كل رجـل في موضعـه. (صحيـح البخـاري).

اختياره لزيد بن ثابت ﷺ؛ ليتعلم اللغة العبرانية ويتولى الترجمة له ﷺ (سُنن أبي داود).

اختياره لمعاذ بن جبل ﷺ لمهمة القضاء في اليمن؛ لفقهه وعلمه وبراعته. (سُنن أبي داود).

من هذا نرى مدى إدراكه ﷺ لمهارات كل فرد من أصحابه، ومدى الاستفادة منها بحسن توظيفها.

وعلى المستوى الشخصي يوجه النبي ﷺ أصحابه إلى النظر للمستقبل نظرةَ تدبيرٍ وحسابٍ لصروف الزمن ومتغيرات الحياة، فها هو سعد بن أبي وقاص ﷺ يقول: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ: لِي مَالٌ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: «لاَ» قُلْتُ: فَالشَّطْرِ؟ قَالَ: «لاَ» قُلْتُ: فَالثُّلُثِ؟ قَالَ: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ، وَلَعَلَّ اللهُ يَرْفَعُكَ، يَنْتَفِعُ بِكَ

نَـاسٌ، وَيُـضَرُّ بِـكَ آخَرُونَ». (صحيـح البخـاري)، فهـذا توجيـهٌ إلى أمريـن:

الأول: التخطيـط لـلأسرة في مسـتقبلها المـادي تخطيطًـا يقيهـا صروف الزمـان.

الثاني: فضل النفقة على الأهل.

وقـد تعلـم عمـر بـن الخطـاب ﷺ ذلـك مـن الرسـول ﷺ، فـإذا بـه يخطـط للدولـة الإسـلامية فيقيـم فيهـا الدواويـن، ويرتـب الـولاة، وينظـم بيـت المـال، وحـين تتعـرض الدولـة لمجاعـة في عهـده يحسـن إدارة الأزمـة والتخطيـط لمواجهتهـا، وهـو بهـذا الفكـر وهـذه الإدارة يقفـز بالدولـة الإسـلامية الفتيـة قفـزات واسـعة، سـادت بهـا الدنيـا شرقًـا وغربًا. (البدايـة والنهايـة).

ثـم جـاء حفيـده عمـر بـن عبـد العزيـز ﷺ الـذي أعـاد التخطيـط للبـلاد؛ ليعيـد توزيـع المـوارد للبـلاد بالعدالـة الاجتماعيـة المرجـوَّة، ويخطـط لاسـتغلال الفائـض مـن الـزكاة؛ ليعيـد توزيعـه فيـما ينفـع النـاس، فيـوزّع عـلى الفقـراء، ثـم يقـضي الديـون، ثـم يُـزوّج

الشباب الذي لا يستطيع النكاح، ثم يعطي فقراء أهل الكتاب، ولحسن تخطيطه وصدقه مع ربه يبارك الله له حتى أطعم الحيوان والطير على رؤوس الجبال .(أخبار عمر بن عبد العزيز للآجري)، فما أحوجنا إلى هذا التخطيط في حياتنا؛ لنحقق الكثير لديننا وأنفسنا وبلادنا!

إن العظماء هم الذين يعرفون هدفهم فيخططون لبلوغه، فإن كانوا أفرادًا كانوا ناجحين، وإن كانوا قادة كانوا لشعوبهم ملهِمِين وبالمسئولية قائمين.

إن بلدنا في حاجة ماسّة إلى أن نضع خططًا قويةً تنهض بحاضرها ومستقبلها في كل المجالات الزراعية والتجارية والتعليمية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، ولا بدّ أن تراعي هذه الخطط الحفاظ على الكفاءات، وتُقِيم مبدأ تكافؤ الفرص بما يحقق العدالة الشاملة، فبدون تخطيط سليم ووعي لمستقبلنا، وإدراك لما حولنا لن يتحقق لنا تقدم ورفاهية.

وفى الوقت الحالي تمر بلادنا بمنعطف خطير في تاريخها، لا يسمح بالفوضى، بل لا بد من الإعداد

الجيد، والتخطيط السليم، والأخذ بالأسباب، وحسن التوكل على الله، والثقة فيه، فليحدد كل منا رسالته وهدفه في الحياة، وليجتهد لتحقيق هدفه، وبلوغ أمله، فالتخطيط السليم والعمل الجاد ثمرتهما حياة طيبة وأجر حسن، قال ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، الآية٩٧].

وللتخطيط أهميةٌ في حياتنا الخاصة، فقد قيل: «التدبير نصف المعيشة»، ويروى مرفوعًا: «ما عال من اقتصد» (مسند أحمد)، وحسن التدبير وتصريف الأمور وفق الإمكانات المتاحة وعدم تكليف النفس فوق طاقتها أحد أهم عوامل استقرار الأسرة والمجتمع.

***

حماية الشأن العام والمصلحة العامة

لقد بنى الإسلام دولة حقيقيةً، أرسى قواعدَها، وجعل لها مقوماتها، وحث على الحفاظ عليها، والذود عنها، وجعل حماية شأنها العام، والاهتمام به مسئولية مشتركة بين أفرادها جميعًا، وكلما زاد الوعي بين أبناء المجتمع بقيمة الشأن العام وخطورته، كلما زاد التعاون والتكاتف والترابط للحفاظ عليه، فتتحقق للمجتمع قوة البنيان الواحد، وشعور الجسد الواحد الذي حث عليه نبينا ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ» (متفق عليه)، وقال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى». (صحيح مسلم).

ومما لا شك فيه أن أحد أهم مقومات الحفاظ على الشأن العام: تقديم المصلحة العامة الواسعة

التي يعود نفعها على جميع الناس على المصلحة الخاصة الضيقة التي يعود نفعها على أصحابها فقط، تخليصا للنفس البشرية من شرور الأنانية؛ ذلك أن المصلحة العامة تشمل كل ما يحقق إقامة الحياة للمجتمع بأسره من أمور مادية، ومعنوية، تجلب الخير والنفع للناس، وتدفع عنهم الشر والمفاسد، وتحقق حماية الوطن، واستقراره، وسلامة أراضيه، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات.

لقد أكد القرآن الكريم أن الحفاظ على المصلحة العامة وتقديمها على المصالح الخاصة هو منهاج الرسل والأنبياء جميعًا، فلم يرسل الله ﷻ نبيًّا ولا رسولًا إلا لإسعاد قومه، وتحقيق الخير لهم، دون مقابل مادي، أو منفعة دنيوية، قال ﷻ على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [سورة هود، الآية ٢٩].

وقال ﷻ على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا

تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة هود، الآية ٥١]، وقال ﷺ على لسان سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود، الآية ٨٨].

ولقد جاء الشرع الحنيف بما يتوافق مع العقل، ويتناسب معه، فرغَّب في أمور من شأنها أن تحقق المصلحة العامة لجميع أبناء الوطن، منها: تلبية حاجات المجتمع الضرورية، ومراعاة فقه الواقع، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم، فالأولوية لذلك، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد، وصيانتها، وتجهيزها، والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم، فالأولوية لذلك، وإن كانت الحاجة ماسَّة لتيسير زواج المعسرين، وسد الدَّين عن المدينين، وتفريج كروب الغارمين، فالأولوية لذلك.

فقضاء حوائج الناس والقيام بمتطلبات حياتهم من الواجبات الشرعية والوطنية، يقول ﷺ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ بِه» (المعجم الكبير للطبراني).

ومنها: الحفاظ على المال العام، فهو مما يشترك فيه المواطنون جميعًا، وحرمة المال العام أشد من حرمة المال الخاص؛ لكثرة الحقوق المتعلقة به، وتعدد الذمم المالكة له، ولذلك حذر الإسلام من إتلافه، أو سرقته، أو الإضرار به، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٦١]، فالمال العام مِلْكٌ للناس جميعًا، وليس مِلْكًا لِفِئَة معيَّنة منهم، والقائمون عليه إنَّما هم أُمَناء في حِفْظه، وتحصيله، وصَرْفه لأهْله، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يعتديَ عليه، أو يأخُذَ منه ما لا يستحقُّ؛ لأن ذلك يعد خيانة وظُلمًا، وأكلًا لأموال الناس بالباطل.

كما أمر الإسلام بالحفاظ على المرافق العامة، كدُور العبادة، والمدارس، والمستشفيات، والحدائق، وغيرها، حيث إنها ملك للجميع، ونفعها يعود على الجميع، وحذَّر أشد التحذير من الاعتداء عليها، أو تضييعها، أو إفسادها بأي صورة من الصور، يقول الحق ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [سورة الأعراف، الآية ٥٦]؛ حتى لا يتوهم بعض الناس أنه

يجوز له أن يستغل المِلك العام بالطريقة التي يريد، وكيفما شاء، بدعوى أن له حقًّا شائعًا فيه، وهذا فهم خاطئ، فالواجب علينا المحافظة على المرافق العامة، وحمايتها والقيام على تنميتها وتطويرها؛ لأنها ليست لفرد دون فرد، ولا لجماعة في زمن معين؛ بل هي لنا جميعًا، وللأجيال القادمة.

ومنها: الحفاظ على الطريق، ومراعاة حقه، فقد قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا، نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ»، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ» (متفق عليه)، وقال رسُولُ الله ﷺ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ- أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» (متفق عليه).

ومنها: أداء الخدمة الوطنية التي تعد من أهم الواجبات التي يقوم بها الإنسان نحو دينه ووطنه،

وهي دليل على ولائه لبلده، وصدق انتمائه إليه، ومحبته إياه، فليس الوطن والعِرض أقل خطرًا أو مكانة عند المسلم من نفسه، أو دينه، أو ماله، أو متاعه، كما أنها تغرس في أبناء الوطن معاني الرجولة، والشهامة، والمروءة، والقيم النبيلة التي جاء بها ديننا الإسلامي الحنيف، يقول ﷺ: «عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ؛ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله» (سُنن الترمذي).

ومن المصلحة العامة التي يجب مراعاتها - حفاظًا على الشأن العام - ما يكون بين الدولة وغيرها من الدول، أو المنظمات، أو المؤسسات الخارجية من معاهدات؛ فإن أي إجراء فقهي، أو إفتائي، أو فكري، أو دعوي، لا بد أن يكون إجراءً مؤسسيًّا، صادرًا عن ولي الأمر، أو من ينيبه في ذلك، وعلى من يتحدث في مثل هذه الأمور أن يضع في اعتباره كل الملابسات المجتمعية، والوطنية، والدولية المتصلة بالأمر الذي يتحدث عنه، حتى لا تصدر بعض الآراء والفتاوى الفردية المتسرعة في الشأن العام، بما

يصادم الواقع، أو يتصادم مع القوانين والمعاهدات والاتفاقيات الدولية، وقد أمرنا الحق ﷻ بالوفاء بالعهود، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [سورة المائدة، الآية ١]، فهذه الآية الكريمة عامة، تشمل كل العقود، والعهود، والالتزامات التي يلتزم بها الإنسان مع غيره، ويقول نبينا ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً، أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا» (سُنن الدارقطني).

وهذا رسول الله ﷺ يرد أبا بصير رضي الله عنه بعد صلح الحديبية، وفقًا للمعاهدة التي كانت بينه ﷺ وبين قريش، مع احتمال تعرض هذا الصحابي للأذى؛ حفاظًا على العهد الذي عاهد عليه قريشًا، وهذا من باب الوفاء بالعهد من جهة، ومن باب تقديم وتغليب المصلحة العامة من جهة أخرى.

إن للحديث في الشأن العام - دون وعي، أو فهم- مخاطره التي تضرب في بنيان الدولة وعضدها؛ لأنه يجعل أمن الوطن واستقراره كلأً مباحًا، ومادة للسخرية، فيكثر اللغط، ويتحدث من لا يعلم فيما

لا يدري، وما أكثر المرجفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وقد أمرنا الحق ﷻ أن نرد الأمر إلى أهله، فقال ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء، الآية ٨٣].

إنَّ مفهوم الشأن العام يتجاوز اهتمامات الفرد المحدودة إلى اهتمامات جموع الأفراد، ومن أجل ذلك فأمره ليس مشاعًا لأفراد الناس؛ وإنما يقوم عليه متخصصون، يدركون قيمة ما أسند إليهم من مهام تتعلق بالأمن القومي، وحياة الناس، ومصالحهم، ومقدرات الأوطان، ووضعها الإقليمي والدولي، وشئونها السياسية، والاجتماعية، والأمنية، والعلمية، وغير ذلك، وأهل العلم على أن المجتهد من أهل الاجتهاد والنظر، إذا اجتهد في مجال اختصاصه فأخطأ فله أجر، وإن اجتهد فأصاب فله أجران، ومفهوم المخالفة يقتضي أن من اجتهد من غير أهل العلم والاختصاص في غير اختصاصه،

وفيما لا علم له به، إن اجتهد فأخطأ فعليه وزران: وزر لخطئه، وآخر لجرأته على الفتوى بدون علم؛ وذلك لحرص الإسلام على احترام أهل العلم والاختصاص، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة النحل، الآية ٤٣]، وأهل الذكر هم أهل العلم والاختصاص في كل علم من العلوم بحسب المسئول عنه.

ومن ثم كان النَّهيُ عن التسرع في الفتيا بدون علم، أو سند شرعيّ، قال ﷻ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية ١٤٤]، وقال ﷻ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة النحل، الآيتان ٤١١، ٥١١]، ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ» (سُنن أبي داود).

وقد كان أكابر الصحابة والتابعين رضي الله عنهم يتحرجون من الفتيا، لعلمهم بخطورتها؛ فها هو الصديق رضي الله عنه،

يقـول: «أَيُّ سَـمَاءٍ تُظِلُّنِـي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِـي إِذَا قُلْـتُ فِي كِتَـابِ اللهِ بِغَـيْرِ عِلْـمٍ؟» (مصنـف ابـن أبي شـيبة)، وسـئل الشـعبي رضي الله عنه عـن مسـألة، فقـال: لا أحسـنها، فقـال لـه أصحابـه: قـد اسـتحيينا لـك، فقـال: لكـن الملائكـة لم تسـتح حـين قالـت: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سـورة البقـرة، الآيـة٣٢] (جامـع بيـان العلـم وفضلـه لابـن عبـد الـبر)، وقـال عبـد الرحمـن بـن أبي ليـلى: أدركـت عشريـن ومائـة مـن الأنصـار، مـن أصحـاب رسـول الله ﷺ، يُسـأَلُ أحدهـم عـن المسـألة، فيردهـا إلى هـذا، وهـذا إلى هـذا، حتـى ترجـع إلى الأول (جامـع بيـان العلـم وفضلـه لابـن عبـد الـبر).

وحمايـة الشـأن العـام مسـئولية مشـتركة، كل حسـب موقعـه، وقدراتـه، يقـول نبينـا ﷺ: «كُلُّكُـمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ؛ الإِمَـامُ رَاعٍ وَمَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ، وَالرَّجُـلُ رَاعٍ فِي أَهْلِـهِ وَهُـوَ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ، وَالمَـرْأَةُ رَاعِيَـةٌ فِي بَيْـتِ زَوْجِهَـا وَمَسْـئُولَةٌ عَـنْ رَعِيَّتِهَـا، وَالخَـادِمُ رَاعٍ فِي مَـالِ سَـيِّدِهِ وَمَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ» (متفـق عليـه).

إن كثيرًا من الناس ربما يستهينون بما يتحدثون به، أو بما يكتبونه، أو بما يقومون بمشاركته على صفحات التواصل الاجتماعي، بل قد يراه بعض الناس صورة من صور التسلية، ولا يدركون أن صناعة الشائعات، وترويجها بين الناس وسيلة من وسائل الهدم التي يستخدمها أهل الباطل في صراعهم مع أهل الحق، فترى أمة الجسد الواحد يشكك بعضها في بعض، ويخوِّن بعضها بعضًا؛ لذا قال النبي ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» (صحيح مسلم)، فإذا كان تحدث الإنسان بكل ما يسمعه نوعًا من أنواع الكذب، يُعاقَب عليه قائله عقوبة شديدة في الآخرة، فكيف بمَنْ يتحدث بما لم يره، أو يسمعه، ولا علم له به، زورًا، وبهتانًا، وافتراءً؟ وكم من كلمة كاذبة تبلغ الآفاق، فتكون سببًا في عذاب صاحبها يوم القيامة، حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لاَ يُلْقِي

لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» (صحيح البخاري)، مما يتطلب منا الحيطة، والحذر، والتعقل، وعدم الخوض فيما لا نعلم، أو الفتوى بدون علم.

لقد أمرنا الحق ﷻ بالتثبت، وعدم الانسياق وراء المخربين، والتحقق من كل الأخبار التي ترد إلينا، حيث يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [سورة الحجرات، الآية ٦]، وقال ﷺ: «الأَنَاةُ مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» (سنن الترمذي)، وقال ﷺ: (التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلاَ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ) (سُنن أبي داود).

ألا ما أحوجنا إلى الوعي بقيمة الشأن العام، وتغليب المصلحة العامة، وإدراك المخاطر التي تحاك حولنا، ويراد لنا الانزلاق فيها كغيرنا، فلنتعظ بغيرنا، ونفوِّت تلك الفرص على أعداء الدين والوطن، ولنَثبُت متحدين على الحق، حتى لا نسقط في مكائد أعدائنا المتربصين بنا، ولننشر الثقة بيننا، ولنتعاون على كل خير يعود أثره على الناس جميعًا.

اللهـم وفقنـا لأداء حقـوق وطننـا علينـا، واحفـظ شـعبنا، وولاة أمورنـا، وجيشـنا، وشرطتنـا، واجعـل مصرنـا العزيـزة أمنًـا أمانًـا، سـخاء، رخـاء، وسـائر بـلاد العالمـين.

***

مفهوم عهد الأمان
في العصر الحاضر

إن الإسلام دين الأمن والأمان، والسلم والسلام، والبر والإحسان؛ ولا شك أن الوفاء بالعهد قيمة أخلاقية وإنسانية عظمى، بها تُدعم الثقة ويتحقق الأمن والأمان بين الشعوب بعضها مع بعض، وتنمو بها أواصر التعاون والمودة والبناء والتقدم بين أبناء المجتمع الواحد، لذا كان الوفاء بالعهد شعبة من شعب الإيمان، ودليلًا من دلائل الصدق والإحسان، فهو أدب رباني جليل، وخلق نبوي كريم، وسلوك إسلامي قويم.

ولقد أمر الإسلام أتباعه بضرورة التحلي بخلق الوفاء بالعهود والعقود والمواثيق، وأكَّد على ذلك تأكيدًا جازمًا، فقال ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [سورة الإسراء، الآية ٣٤]، وقال ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

[سورة النحل، الآية ٩١]؛ أي: التزموا الوفاء بكل عهد أوجبتموه على أنفسكم، سواء أكان فيما بينكم وبين الله ﷻ، أم فيما بينكم وبين الناس، ولا تنكثوا الأيمان بعد أن أكَّدْتموها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا وضامنًا حين عاهدتم، فمن أبرم عقدًا وجب عليه احترامه، ومن أعطى عهدًا وجب عليه الالتزام به.

كما أخبر الحق ﷻ أن أهل الوفاء الملتزمين بعهودهم ومواثيقهم هم أهل محبته، وهم أهل الصدق والتقوى من خلقه، حيث يقول ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ٧٦]، ويقول ﷻ: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٧٧]، وبيَّن ﷻ أنهم أصحاب الأجر العظيم، وورثة جنة النعيم، فقال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح، الآية ١٠]، ثم بيَّن ﷻ هذا الأجر العظيم في موضع آخر من كتابه، فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ

﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [سورة المعارج، الآيات ٣٢-٣٥].

ولقد أعلى النبي ﷺ من قيمة الوفاء بالعهود، وحذر من نقضها، أو عدم الوفاء بها؛ حيث إن في خيانتها وعدم الوفاء بها فسادًا للمجتمعات، وفقدًا للثقة بين الناس، وتضييعًا للأمانات، فقال ﷺ: «آيَةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا أُؤتمِنَ خانَ» (متفق عليه)، ويقول ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ عند شُرُوطِهِمْ» (صحيح البخاري)، وحذر النبي ﷺ من عقوبة الغدر، فقال: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَيُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ» (متفق عليه)، قال ابن كثير رحمه الله: والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًا، لا يطلع عليه الناس، فإذا كان يوم القيامة يصير علمًا منشورًا على صاحبه بما فعل، وهكذا يظهر للناس ما كانوا يُسرُّونه من المكر والخيانة، ويخزيهم الله ﷻ على رؤوس الخلائق.(تفسير ابن كثير).

وإن من جملة العهود التي أمر الشرع الحنيف التزامها، وأكد على الوفاء بها، وعدم نقضها

«عهدَ الأمان»، وهو بمفهوم العصر الحاضر: ما تمنحه الدولة من تصريح، أو تأشيرة، أو إذن بالدخول إلى أراضيها لأحد رعايا الدول الأخرى، سواء أكان سائحًا، أم زائرًا، أم مقيمًا، بموجب الأعراف، والمواثيق، والاتفاقيات الدولية في التعامل مع الدبلوماسيين، ومَن في حكمهم، أو بموجب الاتفاقيات الثنائية بين الدول، بأي طريق من الطرق المعتبرة قانونًا، والمعترف والمعمول بها لدى الدولة المضيفة، وفق قوانينها المنظمة، وبمجرد حصول هذا الشخص على تصريح الإقامة، أو تأشيرة أو إذن الدخول أصبح له حق وحرمة داخل هذه الدولة، وأصبح هذا العهد الذي أعطته الدولة له مُلزمًا لكل مواطنيها، والمقيمين بها، لا يجوز نقضه، أو الالتفاف عليه، أو التحلل منه، لا شرعًا، ولا قانونًا، ومن رأى مخالفة تمس أمن وطنه، أو تخالف النظام العام لدولته، فليس له إلا أن يرفع الأمر لأهل الاختصاص، حتى تتمكن أجهزة الدولة من محاسبته في ضوء ما تقتضيه وتنظمه القوانين؛ إذ

ليس لآحاد الناس محاسبته على ما بدر منه، أو التعرض له بسوء، وإلا صارت الأمور إلى الفوضى وعدم الانضباط.

ومما لا شك فيه أن الوفاء بهذا العهد من أوجب الواجبات وألزمها شرعًا، وقانونًا، ووطنيةً، وإنسانيةً، فإذا كان ديننا الحنيف قد أعلى من شأن عهد الأمان، فإن ذمة المسلمين في ذلك واحدة، بمعنى أن العهد الذي يقطعه أحد المسلمين على نفسه، يكون مُلزمًا لجميع المسلمين، فما بالنا إذا صار هذا العهد ميثاقًا يضبطه وينظمه الشرع والقانون معًا ، متعاضدين، يقوي كل منهما الآخر، ويدعمه، ويستوجبه؟ لا شك أن ذلك يقتضي الوفاء بالذمم والعهود لا نقضها، ولا تضييعها، ولا حتى مجرد المساس بها .

إن الإسلام دين حفظ العهود والعقود، دين لا يعرف الغش، ولا الخداع، ولا الخيانة، فلم يثبت عنه ﷺ - منذ بداية دعوته - ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم أنهم منعوا أحدًا الأمان، أو نقضوا عهد أمان منحوه لأحد، حيث يقول الحق سبحانه

مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٥٨]، وكان بين سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وبين الروم عهد، فأراد معاوية رضي الله عنه أن يخرج على مقربة من حدود الروم، فإذا انتهى الموعد باغتهم، فلحق به رجل من أصحاب النبي ﷺ وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا، فإذا عمرو بن عبسة رضي الله عنه، فأرسل إليه معاوية رضي الله عنه فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة، ولا يحلّها حتّى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»، فرجع معاوية رضي الله عنه. (سُنن أبي داود).

بل تظهر عظمة الإسلام وتتجلى في أعلى صورها في أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يجير ويؤمن من استجاره، ولو كان مشركًا، بل ولو كان محاربًا، حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية ٦].

ولقد رسَّخ النبي ﷺ لهذه القيم النبيلة التي تحقق الأمن والأمان للإنسانية كلها بقوله وفعله، حيث يقول نبينا ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ» (مسند أحمد)، ويقول ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» (صحيح البخاري)، ويقول ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» (سُنن الترمذي)، وها هو النبي ﷺ يجسد لنا عمليًّا أروع الأمثلة في الوفاء بالعهد حتى مع أعدائه؛ فعن يوم بدر يقول حُذَيْفَةُ بْن الْيَمَانِ رضي الله عنه: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ الله وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ،وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ ﷺ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ الله عَلَيْهِمْ». (صحيح مسلم).

وعليه، فإننا نؤكد أن من واجبنا جميعًا الحفاظ على العهود والمواثيق التي تلتزم بها الدولة تجاه كلِّ إنسان يدخل إلى بلادنا، وأن نكون متعاونين ومتضامنين على حفظ دمه، وعرضه، وماله، وخصوصيته، كما أن من واجبنا حسن استقباله، وإكرامه؛ ليرى منا ما نحب أن يتصوره عن عظمة ديننا، وعمق حضارتنا، ورقي إنسانيتنا؛ بما يسهم في تكوين الصورة الذهنية التي نريدها لديننا، ووطننا، ومجتمعنا، وهذا هو حال الأمم والشعوب الراقية المتحضرة.

إن الإسلام دين العدل والتسامح والتعايش السلمي، والمسلم دائمًا أمنٌ وأمانٌ، سلمٌ سلامٌ في كل مكان يحل فيه، في بلاده، وفي غيرها؛ فإذا انتقل المسلم لبلد آخر، سواء أكان من بلاد المسلمين، أم من غيرها، فإن التأشيرة التي تمنحها هذه الدولة له - كعهد أمان، يأمن به على نفسه - هي في المقابل عهد أمان منه لأهل هذا البلد؛ يأمنون به على أنفسهم وأموالهم، ويُلزمه ذلك أن يخضع لقوانين هذا البلد، ويلتزم بها، ويؤدي ما عليه بأمانة وصدق، فيحرم عليه أخذ شيء من أموالهم بغير

حق، أو الاعتداء على أعراضهم، أو الغدر بهم بأية صورة من الصور؛ حتى يكون خير سفير لدينه، ووطنه، وحضارته، فبمجرد دخوله تلك البلاد قد التزم وعاهد الله ﷻ على الوفاء، حتى لا يقع تحت طائلة قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٧].

يقول الإمام الشافعي ﷺ: إذا دخل الرجل دار غير المسلمين بأمان منهم، فلا يحل له أن يأخذ شيئًا من أموالهم - قل أو كثر - حتى ولو كانوا في حالة حرب مع المسلمين؛ لأنه إذا كان منهم في أمان، فهم منه في أمان مثله؛ ولأنه لا يحل له في أمانهم إلا ما يحل له من أموال المسلمين. ولله دَرُّ القائل:

وَفاءُ العَهدِ من شِيَمِ الكرامِ ونقضُ العَهدِ من شِيَمِ اللِّئَامِ
وعندي لا يُعَدُّ من السَّجايا سِوَى حِفظِ المَوَدَّةِ والذِّمام

فروض الكفايات

ودورها في تحقيق التوازن المجتمعي

إن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح العباد، والسُّمُوّ بالنفس البشرية إلى أعلى درجات الرقي والتحضر وحسن التعامل مع الآخرين، عن طريق الالتزام بمنهج الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، ومن ثم يتمكن الإنسان من القيام بالمهمة التي خلقه الله ﷻ من أجلها، ألا وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وعمارة الأرض، قال ﷻ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود، الآية٦١]، والتزكية بالأخلاق الحسنة.

ومن جملة الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام لتحقيق الخير للإنسان ما يعرف بفرض العين، وفرض الكفاية، أما فرض العين فهو ما يجب وجوبًا عينيًّا لازمًا على شخص معين بذاته بحسب قدرته واستطاعته لا يقوم غيره فيه مقامه، ويمثل له

علماء الشريعة بالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، فلا يجزئ صيام الأمة كلها عن إفطار من أفطر، ولا يغني عنه صيامها من الله شيئًا، وكذلك الصلاة والزكاة، ففرض العين إذا أقامه المسلم نال ثوابه وحده، وإذا تكاسل عنه تحمل إثمه وحده.

وأما فرض الكفاية فهو لا يتعلق بشخص بعينه، بل يتعلق بجميع أفراد المجتمع؛ لكن إذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقم به أحد أثموا جميعًا، ومن ثم ففرض الكفاية هو ما يجب على المجتمع أن يقوم به من إنفاق المال، أو بذل الجهد لدفع الضرر عن الفقراء والمساكين وغير القادرين، يقول الحق ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٠٤].

فالكل في سفينة واحدة، ولكي تصل إلى برِّ الأمان لابد من تكاتف الجميع وإلا هلكوا جميعًا، يقول نبينا ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ

أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» (صحيح البخاري).

وإذا كان بعض الفقهاء القدامى قد مثلوا لفروض الكفاية ببعض الأمور، كردِّ السلام، وتشميت العاطس، واتباع الجنائز، وتغسيل الميت، وتجهيزه، وتكفينه والصلاة عليه، ونحو ذلك، فإنما ذكروا ذلك كله على سبيل المثال لا الحصر، حيث إن مفهوم فروض الكفاية يتسع لكل ما فيه صلاح البلاد والعباد، فهي لا تتوقف عند مجرد الشعائر فحسب، بل تتناول كل ما تقوم به حياة الفرد والمجتمع، أو ما يهدف إلى المصلحة العامة، انطلاقًا من قوله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١١٠]، وقول نبينا ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (مُتفَقٌ عَلَيْه).

على أن كثيرًا من الناس يعتقدون أنهم أدوا ما عليهم بدفع زكاة أموالهم، وغاب عنهم ما في المجتمع من أيتام وأرامل، وفقراء ومساكين، ومرضى ومنكوبين، فليعلم الجميع أنه إذا أصيب أحد بكرب، أو احتاج شيئًا وجب عليهم أن يدفعوا عنه ذلك الكرب، أو يقضوا له تلك الحاجة متضامنين، فإذا قام به واحد منهم سقط الحرج عن الباقي، وإذا تخلف الجميع أثموا جميعًا.

ومن أمثلة فروض الكفاية التي تحقق التوازن المجتمعي: التكافل الاجتماعي: فالإسلام لا يَعْرِف الفردية أو الأنانية أو السلبية، وإنما يعرف الإخاء الصادق، والعطاء الكريم، والتعاون على البِرِّ والتقوى، وهذا ما دعا إليه نبينا ﷺ، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ

لاَ زَادَ لَـهُ، قَـالَ: فَذَكَـرَ مِـنْ أَصْنَـافِ الْمَـالِ مَـا ذَكَـرَ حَتَّـى رَأَيْنَـا أَنَّـهُ لاَ حَـقَّ لأَحَـدٍ مِنَّـا فِي فَضْـلٍ» (صحيح مسـلم).

ولقـد ضرب الأشـعريون أروع الأمثلـة في التكافـل المجتمعـي فاسـتحقوا ثنـاء رسـول الله ﷺ، فعَـنْ أَبِي مُوسَـى ﷺ قَـالَ: قَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «إِنَّ الأَشْـعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُـوا - نَفـدَ زادهـم - فِي الغَـزْوِ، أَوْ قَـلَّ طَعَـامُ عِيَالِهِـمْ بِالْمَدِينَـةِ جَمَعُـوا مَـا كَانَ عِنْدَهُـمْ فِي ثَـوْبٍ وَاحِـدٍ، ثُـمَّ اقْتَسَـمُوهُ بَيْنَهُـمْ فِي إِنَـاءٍ وَاحِـدٍ بِالسَّـوِيَّةِ، فَهُـمْ مِنِّـي وَأَنَـا مِنْهُـمْ» (مُتفَـقٌ عَلَيْـه)، فهـذا مثـال عمـليٌّ واقعـيٌّ، تنتفـي فيـه كل مظاهـر الفرديـة والأنانيـة، ويسـتحضر الجميـع روح الجماعـة والأخـوة الممزوجـة بفضيلـة المحبـة والإيثـار إحساسًـا بكونهـم جسـدًا واحـدًا يقـوى بالتعاطـف والتراحـم والتكافـل والتعـاون «ثُـمَّ اقْتَسَـمُوهُ بَيْنَهُـمْ فِي إِنَـاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّـوِيَّةِ » فـكان التعقيب المحمـدي على هـذا الفعـل الجميـل بقوله ﷺ: «فَهُمْ مِنِّـي وَأَنَـا مِنْهُـمْ».

ومـن فـروض الكفايـة: قضـاء حوائـج النـاس، فقضـاء حوائجهـم والقيـام بمتطلبـات حياتهـم مـن

الواجبات الشرعية والوطنية، يقول ﷺ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ» (مسند أحمد)، وفي حديث آخر نرى النبي ﷺ يقدم قضاء حوائج الناس على الاعتكاف في مسجده، حيث يقول: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى الله تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا... وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى تَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ الله قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ». (المعجم الكبير للطبراني).

والمتأمل في واقع الناس اليوم يجد منهم الفقير الذي لا يجد ما يسد جوعه، والمريض الذي لا يجد دواءه، والأرامل، واليتامى والضعفاء، ومن لا عائل لهم، هؤلاء وغيرهم أحق بقضاء مصالحهم وحوائجهم، وكان ﷺ يحرص على متابعة أصحابه في قضاء حوائج الناس والسعي في مصالحهم،

فيسأل عمن فعل واستجاب وعمن حرص واقتدى، فقَالَ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، فَقَالَ ﷺ: «مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ». (صحيح مسلم).

كذلك من فروض الكفاية التي تسهم في سد حاجات المجتمع: العمل على تخريج المتميزين من الأطباء والمهندسين والعلماء المتخصصين بما يحقق كفايته في شتى المجالات العلمية والإنتاجية.

يقول الإمام الغزالي في الإحياء: «أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين،

...وكذلك فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات».

فلو خلا بلد من هذه العلوم والصناعات تعرض أهل هذا البلد للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، ومن لا يملك قوته وسلاحه وعتاده ودواءه لا يملك إرادته، ومن ثَمَّ وجب علينا جميعًا وجوبًا دينيًّا ووطنيًّا أن نعمل وبمنتهى الهمة والجد على تحقيق الكفاية لوطننا في جميع المجالات حتى نصبح أمة منتجة، أمة مُصَدِّرَة، أمة نافعة لنفسها وللإنسانية، وليست عالة على غيرها، لا في طعامها، ولا في شرابها، ولا في كسائها، ولا في علاجها، فعلاج مرضى المجتمع أمانة في أعناق أطبائه، ومحو أمية المجتمع أمانة في أعناق مُعلِّميه، وحفظ أمنه أمانة في أعناق جيشه وشرطته، وعدل المجتمع أمانة في أعناق قضاته، ففروض الكفايات تقوم على المسئولية التضامنية لأفراد المجتمع، كل في مجاله وميدانه، يقول ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [سورة المائدة، الآية ٢].

إن القيام بفروض الكفاية خير وسيلة للقضاء على الفقر، والجهل، والمرض، حتى لا يجوع فقير، ولا يضيع يتيم، ولا يحتاج مسكين، ومن ثمَّ يتحقق التوازن المجتمعي، والعدل بين الناس، وضمان الأمن والأمان، من خلال إنفاق المال لإطعام الجائعين، ورعاية اليتامى والمساكين، وعلاج المرضى والمعاقين، وبذل الجهد لإغاثة الملهوفين والمنكوبين، وإزالة الكرب عن المكروبين، وتقديم يد العون للفقراء والمحتاجين، وبذلك يتحقق التوازن المجتمعي.

ومن أمثلة فروض الكفايات التي تسهم في سد حاجات المجتمع: السعي إلى تحقيق القوة في جميع جوانب حياتنا الإيمانية، والعلمية، والفكرية، والاقتصادية، والإنتاجية، يقول ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٦٠]، ولم يحدد الله ﷻ نوع هذه القوة، فهي شاملة لكل قوة تُصلح

الأمة، سواء أكانت قوة روحية أم علمية أم جسدية، أم غير ذلك.

ومن أمثلة فروض الكفايات: تلبية حاجات المجتمع الضرورية بمراعاة فقه الواقع وتقديم فقه الأولويات، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فلا بد من القيام بذلك، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فلابد من القيام بها، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين وسدِّ الدَّيْن عن المدينين، وتفريج كروب الغارمين والغارمات فلا بد من القيام بذلك، وإن كانت الحاجة في توفير المياه النقية الصالحة لكل أفراد الأمة، فلابد من القيام بهذا الواجب سدًّا للحاجات الضرورية للمجتمع، وهذا ما فعله سيدنا عثمان بن عفان ﷺ عندما اشترى بئر رومة استجابة لأمر رسول الله ﷺ حين قال: «مَنْ يشترى بئر رُومَة فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين» (صحيح

البخاري)، قال سيدنا عثمان: فَابْتَعْتُهَا بِكَذَا وَكَذَا، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: قَدِ ابْتَعْتُ بِئْرَ رُومَةَ، قَالَ: «اجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ» (سُنن النسائي)، فقد كانت حاجة المجتمع ماسة لشراء المياه، وكلما كانت الحاجة أشد كان الثواب أعظم.

ومن ثمَّ فإن فروض الكفايات تتعلق بكل حاجات المجتمع، وتغطي كل مجالات الحياة، ولنعلم أن إحياء الواجب الكفائي يسهم في تحقيق التكافل والتوازن المجتمعي من جهة، وسد حاجات الوطن الأساسية والضرورية من جهة أخرى، فما أعظم ديننا لو فهمناه فهمًا صحيحًا وطبقناه تطبيقًا واعيًا؛ لأنه يحرص أشد الحرص على ما فيه صالح البلاد والعباد والإنسانية.

***

ترتيب الأولويات
وأثره في حياة الفرد والمجتمع

من الواجبات الشرعية لكل مسلم أن ينضبط لديه ميزان الدين الصحيح، فيرتب الأوامر الشرعية والتعاليم الإسلامية حسب وضعها في دين الله ﷻ، حتى لا يؤخر ما قدمّه الدين أو يقدِّم ما أخره، أو يُضَيِّع الفاضل بانشغاله بالمفضول، فيظن المرء أنه محسنٌ والحال أنه مخدوع، يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[سورة الكهف، الآيتان ١٠٣، ١٠٤].

والقرآن الكريم حافل بكثير من الآيات التي ترغب المسلم في السعي نحو الأفضل والأكمل في كل شيء، وتطالبه بأن يستفرغ جهده لتحقيق الأولى في عمله الديني والدنيوي معًا، من هذه الآيات قوله ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا

﴿بِأَحْسَنِهَا﴾[سورة الأعراف، الآية ١٤٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾[سورة النساء، الآية ٨٦]، وقوله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[سورة النحل، الآية ١٢٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[سورة الإسراء، الآية ٥٣]، إلى غير ذلك من الآيات التي يشتمل عليها القرآن الكريم وكلها تدعو المسلم إلى السعي الدؤوب نحو الأفضل والأكمل في كل شيء.

وفي السنة النبوية إشارات إلى وضع كل شيء في مكانه الجدير به، وعدم الانشغال بالنوافل عن الحقوق والواجبات، فهذا سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وبين أَبِي الدرداء، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مبتذلة، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ

يَقُومُ قَالَ: نَمْ، فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ». (صحيح البخاري).

ويتضح من توجيهات النبي ﷺ لأصحابه في مواضع عديدة أن تقديم الأولويات من أوجب الواجبات؛ لأنها تحدث توازنًا في حياة الإنسان ومعاشه.

ومراعاة الأولويات في حياتنا تستلزم العلم بالواقع والفقه بالواجبات الشرعية معًا؛ ولهذا فقد قدّم الإسلام العلم على العمل، ورفع شأن العلماء العاملين على العابدين بغير علم، فعن أَبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ» (سُنن أبي داود)، فالعلم شجرة والعمل ثمرة، العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع الدراية.

وإننا إذ نتكلم عن ترتيب الأولويات فهناك مشكلات تتقلب فيها الأمة، علينا أن نرتبها ونبحث لها عن حلول، فهذا أولى من أن نهتم بأمور هي من نوافل العبادات، كمن يهتم بصيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، وهو للواجبات مُضَيِّع، ولحقوق العباد آكل، أو كمن يحرص على حج النافلة وهو لمصالح العباد مُعَطِّل، فالذين يحجون ويعتمرون مرات ومرات تطوعًا وتنفلًا مع احتياج بعض أهليهم وجيرانهم وبني وطنهم إلى الطعام والكساء والدواء واحتياج أوطانهم إلى مقومات أساسية لا تستقيم حياة أبنائه إلا بها، وبخاصة في مجالات الصحة والتعليم، فهؤلاء نذكرهم بأمرين:

أولهما: أن قضاء حوائج الناس والقيام بمتطلبات حياتهم ليس مجرد نافلة، إنما هو واجب شرعي ووطني، يقول نبينا ﷺ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ» (المعجم الكبير للطبراني)، ويقول الحق ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[سورة الماعون، الآيات ١ - ٣].

فإذا كان هذا جزاء من لا يحض غيره وهو لا يملك فما بالنا بمن لا يؤدي حق الله ﷻ؟! يقول الحق ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [سورة التوبة، الآية ٣٤]، ويقول ﷻ مخاطبًا أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ [المدثر، الآيات ٤٢ - ٤٤]، ويقول ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[سورة محمد، الآية ٣٨].

وعلى العكس من ذلك فإن جزاء المحسنين المنفقين جد عظيم عند الله ﷻ وعند الناس، يقول الحق ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة، الآية ٢٦١]، ويقول نبينا ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا

خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا». (متفق عليه).

الثاني: أن قضاء حوائج الناس مقدم على ألف حجة وحجة بعد حجة الإسلام التي هي حجة الفريضة، ومن ألف عمرة نافلة، فالأول الذي هو قضاء حوائج الناس إصلاح للفرد والمجتمع، والآخر الذي هو حج النافلة وتكرار العمرة لا يخرج عن دائرة صلاح النفس، والإصلاح مقدم على الصلاح، وقد يصير ذلك ضروريًّا ومُحَتَّمًا في مثل الظروف الاقتصادية التي نمر بها.

كما أن الأول مصلحة عامة، والثاني يدخل في دائرة المصالح الخاصة، والعام مقدم على الخاص، والأعم نفعًا مقدم على محدود النفع أو قاصر النفع.

والأول - الذي هو قضاء حوائج الناس - لا يخرج عن كونه فرض عين أو فرض كفاية، ولا شك أن الفرض والواجب عينيًا كان أم كفائيًّا مقدم على سائر النوافل لا على حج النافلة وتكرار العمرة فحسب، ولهذا فإننا نرى النبي ﷺ يقدم قضاء

حوائج الناس على الاعتكاف في مسجده هو ﷺ فقد قال: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى الله تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِم، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ الله قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ الله قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ». (المعجم الكبير للطبراني).

وقد نقل حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في إحيائه عن أبي نصر التمار أن رجلًا جاء يودع بشر بن الحارث وقال: قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزهدًا أو اشتياقًا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله ﷻ وأنت

في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله ﷻ أتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس، مدين يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحدًا فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر ﷺ وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطرًا فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

ومن نماذج الأولويات التي ينبغي أن يلتفت إليها المؤمن: أن العفو والصفح أولى من الانتصار، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[سورة الشورى، الآيتان ٣٩-٤٠]، فإذا كان الانتصار وردُّ

العـدوان لا لـوم فيـه ولا عـدوان ولا مؤاخـذة، فـإن المغفـرة أفضـل وأليـق بالمؤمـن.

ومـن هـذه النـماذج أيضًـا أن الصدقـة حـال الصحة أولى مـن الوصيـة: فعـن أبي هريـرة ﷺ قـال: جاء رجل إلى رسـول الله ﷺ فقـال: يـا رسـول الله، أي الصدقـة أعظـم أجـرا؟ قـال: «أن تصـدق وأنـت صحيـح شـحيح، تخشـى الفقـر وتأمـل الغنـى، ولا تمهـل حتـى إذا بلغـت الحلقـوم» قلـت: لفـلان كـذا، ولفـلان كـذا، وقـد كان لفـلان (متفـق عليـه)، ومـن ثـم فـإن الإحسـان في وقـت الصحـة والعافيـة، أفضـل وأكثـر أجـرًا مـن بـذل المـال حـال المـرض واقـتراب الأجـل.

ومـن ذلـك: ضرورة الوعـي بترتيـب الأولويـات في بـاب الصدقـة الجاريـة مثـلًا في هـذا الزمـان أن يوجـه كثـير مـن النـاس أموالهـم في بـابٍ واحـد مـن أبـواب الصدقـات كمـن يبنـي مسـجدًا في قريـة يوجـد بهـا مسـاجد أكثـر مـن حاجـة المصلـين، في الوقـت الـذي هـي في أمـسِّ الحاجـة إلى مستشـفى أو مدرسـة أو غـير ذلـك مـن مصالـح النـاس ومرافقهـم الضروريـة، أو

مـا تقتضيـه مصلحـة الديـن والبـلاد والعبـاد، فـإن كان يبنيـه لنفسـه فليفعـل مـا يشـاء، وإن كان يبنيـه لله فمصالـح العبـاد واحتياجاتهـم ممـا يحبـه الله ويرغـب فيـه؛ لأن ذلـك دليـل عـلى الإخـلاص وعـلى ابتغـاء مـا عنـد الله ﷻ.

ومـن الأولويـات التـي يقررهـا الإسـلام: أن إبـراء المعـسر وإعفـاءه أولى مـن إنظـاره، يقـول الحـقّ ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة، الآيـة٢٨٠]، ويقـول النبـي ﷺ: «مَـنْ نَفَّـسَ عَـنْ مُؤْمِـنٍ كُرْبَـةً مِـنْ كُـرَبِ الدُّنْيَـا نَفَّـسَ الله عَنْـهُ كُرْبَـةً مِـنْ كُـرَبِ يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ وَمَـنْ يَـسَّرَ عَـلَى مُعْـسِرٍ يَـسَّرَ الله عَلَيْـهِ فِي الدُّنْيَـا وَالْآخِـرَةِ وَمَـنْ سَـتَرَ مُسْـلِمًا سَـتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَـا وَالْآخِـرَةِ وَالله فِي عَـوْنِ الْعَبْـدِ مَـا كَانَ الْعَبْـدُ فِي عَـوْنِ أَخِيـهِ وَمَـنْ سَـلَكَ طَرِيقًـا يَلْتَمِـسُ فِيـهِ عِلْـمًا سَـهَّلَ الله لَـهُ بِـهِ طَرِيقًـا إِلَى الْجَنَّـةِ وَمَـا اجْتَمَـعَ قَـوْمٌ فِي بَيْـتٍ مِـنْ بُيُـوتِ الله يَتْلُـونَ كِتَـابَ الله وَيَتَدَارَسُـونَهُ بَيْنَهُـمْ إِلَّا نَزَلَـتْ عَلَيْهِـمُ السَّـكِينَةُ وَغَشِـيَتْهُمُ الرَّحْمَـةُ وَحَفَّتْهُـمُ

الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». (صحيح مسلم).

ولعل من أشد الأزمات التي نتعرض لها اليوم، بل هي أساس أزمات كثيرة: أزمة عدم الوعي بالقضايا الجوهرية والمصيرية، والاهتمام بقضايا بعيدة عن الواقع، ومن ذلك ضرورة الوعي بترتيب الأولويات، ومن هنا رأينا من يحرص على المفضول ويترك الأفضل، ومن يحرص على بعض المستحبات ويُفرِّط في الفرائض والواجبات أو يتساهل في المحرمات، الأمر الذي يستلزم المعرفة بفقه الأولويات وكيفية الموازنة بين المصالح والمفاسد والترجيح بينها إذا تعارضت.

وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول لأهل العراق: ما أَسْأَلَكم عن الصغيرة وأَجْرَأَكُم على الكبيرة (صحيح مسلم)، يعني ما أكثر سؤالكم عن الصغائر مع جرأتكم على الكبائر.

وحتى نكون واعين بمشكلاتنا قادرين على حلها لا بُدّ أولًا من إصلاح الأسرة التي هي نواة

المجتمع، فنرتب أولويات الحياة الأسرية والتي من أهمها: البر والصلة بين أفراد الأسرة، فلدينا مشكلة العقوق بين الأبناء والآباء والتي اهتمّ بها القرآن الكريم وكثيرًا ما تحدّث عنها وأمر ببر الوالدين، وبخاصة الأم، فقال الحقّ ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[سورة الأحقاف، الآيتان ١٥-١٦].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ».(متفق عليه) .وتقديم الأمّ هنا؛ لضعفها وحاجتها إلى مزيد رعاية وعناية ولأولويتها بالاهتمام.

كما أنّ من الأولويات: الاهتمام برعاية الأبناء وتربيتهم تربية تتفق مع مبادئ الإسلام: تقدم أولويات التربية من حيث الأخلاق، والحفاظ على العبادة، وتقديم القدوة الصالحة التي تتمثل في رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، مع مراعاة عدم الإمعان في الرفاهية لدرجة خرق المروءة، أو القسوة والشدة لدرجة انعدام الرحمة، فعَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ ﷺ أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ». (متفق عليه).

فإذا أحسنا ترتيب أولوياتنا وأحسنا توظيف طاقاتنا وجميع إمكاناتنا العلمية والثقافية والمادية وفق هذه الأولوية فإن ذلك بلا شك يسهم في نهضتنا ورقينا وتقدمنا بإذن الله ﷻ.

***

رعاية المسنين وحماية حقوقهم

لقد خلق الله ﷻ الإنسان في أحسن تقويم، وكرَّمه وفضله على سائر مخلوقاته، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء، الآية ٧٠].

ولما كان الإسلام دين الإنسانية والرحمة بأرقى معانيها، جاء ليُعلي قيمة الإنسان ويحفظ كرامته، ويرتقي به جسدًا وروحًا، ويلبِّي كل متطلباته وفق منهج ونظام محكم دقيق، يحث على البر، وينهى عن الإثم، ويأمر بالرحمة، ويعلي من قدر الإنسانية، فالإنسانية ليست مجرد كلمة أو شعار بقدر ما هي مسئولية وواجب يرعى حقَّ الضعيف قبل القوي، والصغير قبل الكبير، والمريض قبل الصحيح، وتتجلى مظاهر هذه الإنسانية في رعاية المسنين،

وكفالة حقوقهم، وقضاء حوائجهم، والسعي على مصالحهم؛ وذلك حرصًا على استقرار حياتهم وإدخال السرور عليهم، وإعطاء كلِّ ذي حق حقه، وتقوية لأواصر الودِّ والمحبة والترابط بين الناس جميعًا.

فإنَّ إكرام الكبير، ورعاية المسنين وحماية حقوقهم جزء لا يتجزأ من حضارتنا الإنسانية، فالمجتمع الذي لا يوقر الكبير، ولا يرحم المسنين مجتمع لا خير فيه ولا حضارة له.

ولِمَ لا؟ وهم جزء أصيل من نسيج المجتمع، أدُّوا ما عليهم فترة شبابهم، فهم الأكثر حكمة وخبرة في الحياة، وهم الأمان لغيرهم، وبهم يتحقق نصر الله ﷻ، ويزداد الرزق، حيث قال ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلاَ بِضُعَفَائِكُمْ». (صحيح البخاري) أي: ببركتهم، وبدعائهم، وصدق نياتهم.

ولقد حثَّ النبي الكريم ﷺ على احترام المسنين وإكرامهم، ومعرفة قدرهم ومكانتهم، وربط بين ذلك وبين إجلال الله ﷻ، فقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ الله إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ

غَـيْرِ الْغَـالِي فِيـهِ وَالْجَـافِي عَنْـهُ، وَإِكْـرَامَ ذِي السُّـلْطَانِ الْمُقْسِـطِ» (سُـنن أبي داود)، فقـدَّم النبـي ﷺ ذكـر ذي الشـيبة عـلى حامـل القـرآن والحاكـم العـادل مـع علـو منزلتهـما؛ إكرامًـا لـذي الشـيبة، وتقديـرًا لـه، حتـى إن النبـي ﷺ نفـى كـمال الإيـمان عمـن أنكـر حـق ذي الشـيبة واسـتخفَّ بـه، يقـول نبينـا ﷺ: «لَيْـسَ مِـنْ أُمَّتِـي مَـنْ لَمْ يُجِـلَّ كَبِيرَنَـا، وَيَرْحَـمْ صَغِيرَنَـا، وَيَعْـرِفْ لِعَالِمِنَـا حَقَّـهُ» (مسـند الشـامي)، وفي الحديـث الشريـف أيضًـا: أن شـيخًا كبـيرًا أراد النبـي ﷺ فأبطـأ الجالسـون في أن يوسـعوا لـه، فقـال ﷺ: «لَيْـسَ مِنَّـا مَـنْ لَمْ يَرْحَـمْ صَغِيرَنَـا وَيُوَقِّـرْ كَبِيرَنَـا». (سُـنن الترمـذي)، وفي روايـة: «وَيَعْـرِفْ حَـقَّ كَبِيرِنَـا». (مسـند أحمـد)، وفي روايـة ثالثـة: «وَيَعْـرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَـا». (سُـنن الترمـذي).

ولقـد راعـى الـشرع الحنيـف التخفيـف والتيسـير عليهـم في أداء الطاعـات والعبـادات رأفـةً بهـم، فقـد أمـر الإسـلام بتخفيـف الصـلاة مـن أجـل أصحـاب الأعـذار وكِبـار السـن، فقـال ﷺ: «إِذَا صَـلَّى أَحَدُكُـمْ للنَّـاسِ فَلْيُخَفِّـفْ، فَـإِن فيهِـم الضَّعِيـفَ وَالسَّـقِيمَ

وَالكَبِيرَ». (متفق عليه)، وفي رواية: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ، وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ». (مسند أحمد).

وكذلك رخَّص الإسلام لغير القادر منهم في الإفطار مع الفدية في رمضان، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٨٤].

والمقصود بالذين يطيقونه: من يتحملون الصوم بمشقة شديدة بالغة ككِبار السن، وأصحاب الأعذار، وفي الحج رُخِّص لهم كذلك في كثير من الأحكام؛ رفعًا للحرج عنهم، ودفعًا للمشقة، فهم أكثر فئات المجتمع احتياجًا إلى الاهتمام والرعاية بعد أن أفنَوا حياتهم في طاعة الله ﷻ، وتربية أبنائهم، وفي خدمة أوطانهم ومجتمعاتهم.

ومن حقوقهم أيضًا: حسن معاملتهم، ورعايتهم، جسديًّا، ونفسيًّا، وروحيًّا، بغض النظر عن دينهم، فهذا رسول الله ﷺ يوم فتح مكة أتاه أبو بكر رضي الله عنه بأبيه (أبي قحافة)، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هَلاَ تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ، قَالَ

أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فأسلمَ». (مسند أحمد).

وقد ضرب الصحابة ﷺ أروع الأمثلة في حسن معاملة المسنين ورعايتهم، اقتداء بنبيهم ﷺ.

فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يرى رجلًا مسنًّا من أهل الكتاب يتكفف الناس، فأخذ بيده وذهب به إلى منزله، فأحسن إليه وأعطاه ما يسُدُّ حاجته، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: (انظر هذا وضُرباءه - أي وأمثاله - فوالله ما أنصفناه إذ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم)، وتلا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [سورة التوبة، الآية ٦٠] (الخراج لأبي يوسف).

إن احترام الكبير وحسن معاملته يبرز حسن وجمال الإسلام وسماحته في معاملة الضعفاء وأصحاب الحاجات، فالإسلام يدعو إلى التكافل والتراحم، ويهتم بالفئات الضعيفة التي لا تقوى

عـلى مطالـب الحيـاة، ولقـد ربَّـى النبـي ﷺ المجتمـع المسـلم عـلى حـب الخـير للغـير، وتقديـم يـد العـون ومسـاعدة المحتاجـين، وأمـر بـه، وكان عمـر رضي الله عنه - وهـو أمـير المؤمنـين - يخـرج في سَـوَادِ اللَّيـل فـرآه طلحـة رضي الله عنه، فذهـب عمـر فدخـل بيتًـا، ثـم دخـل بيتًـا آخـر، فلـما أصبـح طلحـة ذهـب إلى ذلـك البيـت فـإذا بعجـوز عميـاء مقعـدة، فسـألها: مَـا بَـالُ هَـذَا الرَّجُـلِ يَأْتِيـكِ؟ قالـت: إنـه يتعاهـدني منـذ كـذا وكـذا، يأتيني بـما يصلحنـي، ويخـرج عنـي الأذى». (حليـة الأوليـاء لأبي نعيـم).

فالإسـلام يدعـو إلى التكافـل والتكامـل بـين أفـراد المجتمـع حتـى تسـوده روح الوئـام والسـلام، وتتحقـق الألفـة والمـودة والترابـط بـين جميـع أبنائـه.

فـما أحوجنـا إلى عـودة حقيقيـة وجـادة إلى قيمنـا الدينيـة والمجتمعيـة والإنسـانية، مـن إكـرام الكبـير، وذي الشـيبة، وذوي الهمـم والقـدرات الخاصـة.

عـلى أن رعايـة المسـنين وحمايـة حقوقهـم، تـزداد أهميـة ومسـئولية إذا كان المسـن ذا رحـم وصلـة،

فيكـون أولى بالعنايـة والرعايـة، بـل إنـه يصـل إلى حـد المسـئولية التـي يأثـم مـن يقَـصِّر في الوفـاء بحقهـا إذا كان المسـن أبًـا أو أمًّـا، حيـث يقـول الحـق ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [سـورة الإسراء، الآيـة ٢٣].

ويقـول ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سـورة لقـمان، الآيتـان ١٤، ١٥].

ولمـا جـاء أحـد النـاس يسـتأذن النبـيَّ ﷺ في الجهـاد، فقـال: «يـا رسـول الله: إني جئـت أريـد الجهـاد معـك، ولقـد أتيـت وإنَّ والـديَّ يبكيـان، قـال لـه ﷺ: «فَارْجِـعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا» (سُـنن ابـن ماجـه).

وأقبـلَ رَجُـلٌ إِلَى النَبـيِّ ﷺ فَقَـالَ: «أُبَايِعُـكَ عَـلَى الهِجْـرَةِ وَالجِهَـادِ أَبْتَغِـي الأَجْـرَ مِـنَ الله تَعَـالَى، قَـالَ:

فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلاهُمَا، قَالَ: فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ الله تَعَالَى؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا» (صحيح مسلم)، وفي رواية: «جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِهَادِ، فقَالَ: أَحَيٌّ وَالِداكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ». (متفق عليه).

ومن ثمَ فعلينا أن نمتثل منهج القرآن الكريم، وتوجيهات النبي العظيم ﷺ في رعاية المسنين والضعفاء، والرحمة بهم، والعمل على حماية حقوقهم.

وإذا كان الإسلام قد حثَّ على رعاية المسنين عامَّةً وحماية حقوقهم، فإنه أكدَ على هذه الرعاية للوالدين وخاصة في سن الشيخوخة، وجعل ذلك ضربًا من الجهاد في سبيل الله ﷻ.

فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه «أن رجلاً مرَّ على النبي ﷺ فرأى الصحابةُ رضي الله عنهم من جَلَدِهِ ونَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟! فقال رسول الله ﷺ: إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى

عَـلَى وَلَـدِهِ صِغَـارًا فَهُـوَ فِي سَـبِيلِ الله، وَإِنْ خَـرَجَ يَسْـعَى عَـلَى أَبَوَيْـنِ شَـيْخَيْنِ كَبِيرَيْـنِ فَهُـوَ فِي سَـبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ يَسْـعَى عَـلَى نَفْسِـهِ يَعِفُّهَـا فَهُـوَ فِي سَـبِيلِ اللهَ، وَإِنْ كَانَ خَـرَجَ رِيَـاءً وتَفَاخُـرًا فَهُـوَ فِي سَـبِيلِ الشَّـيْطَانِ». (المعجـم الكبـير للطـبراني).

ولا شـك أن رعايـة الأبويـن في الشـيخوخة والكـبر والقيـام عـلى أمرهمـا يُنجـي مـن الأزمـات، ويُفـرج الكربـات، ويُقيـل العثـرات في الدنيـا والآخـرة، ففـي حديـث الثلاثـة الذيـن انحـدرت عليهـم الصخـرة مـن أعـلى الجبـل فسـدت عليهـم بـاب الغـار؛ توسـل كل واحـد منهـم بعمـل أخلـص فيـه لله ﷻ؛ لعلـه يرفـع عنهـم مـا هـم فيـه، فـكان مـن توسـل الأول ودعائـه: «اللهُـمَّ إِنَّـهُ كَانَ لِي وَالِـدَانِ شَـيْخَانِ كَبِـيرَانِ، وَامْـرَأَتِي، وَلِي صِبْيَـةٌ صِغَـارٌ أَرْعَـى عَلَيْهِـمْ، فَـإِذَا أَرَحْـتُ عَلَيْهِـمْ حَلَبْـتُ، فَبَـدَأْتُ بِوَالِـدَيَّ، فَسَـقَيْتُهُمَا قَبْـلَ بَنِـيَّ، وَأَنَّـهُ نَـأَى بِي ذَاتَ يَـوْمٍ الشَّـجَرُ، فَلَـمْ آتِ حَتَّـى أَمْسَـيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَـدْ نَامَـا، فَحَلَبْـتُ كَـمَا كُنْـتُ أَحْلُـبُ، فَجِئْـتُ بِالْحِـلَابِ، فَقُمْـتُ عِنْـدَ رُءُوسِـهِمَا أَكْـرَهُ أَنْ أُوقِظَهُـمَا

مِـنْ نَوْمِهِـمَا، وَأَكْـرَهُ أَنْ أَسْـقِيَ الصِّبْيَـةَ قَبْلَهُـمَا، وَالصِّبْيَـةُ يَتَضَاغَـوْنَ عِنْـدَ قَدَمَـيَّ، فَلَـمْ يَـزَلْ ذَلِـكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُـمْ حَتَّـى طَلَـعَ الْفَجْـرُ، فَـإِنْ كُنْـتَ تَعْلَـمُ أَنِّي فَعَلْـتُ ذَلِـكَ ابْتِغَـاءَ وَجْهِـكَ، فَافْـرُجْ لَنَـا مِنْهَـا فُرْجَـةً نَـرَى مِنْهَـا السَّـمَاءَ، فَفَـرَّجَ اللهُ مِنْهَـا فُرْجَـةً، فَـرَأَوْا مِنْهَـا السَّـمَاءَ...». (متفـق عليـه).

وإن مـن سـنة الله ﷻ في خلقـه أنَّ مَـن بـرَّ والديـه بـرَّهُ أبنـاؤُه، ومـن عـقَّ والديـه عقَّـه أبنـاؤُه، فالجـزاء مـن جنـس العمـل، فقـد رُوي أن رجـلًا ضـاق بوالده المسـن فصنـع لـه وعـاءً خشـبيًّا حتـى لا تنكـسر منـه الأطبـاق لرعشـة أصابتـه في يـده، فسـأله أصغـر أبنائـه لِمَ صنعـتَ هـذا الإنـاء يـا والـدي؟ قـال: لنضـع فيـه الطعـام لجـدك حتـى لا ينكـسر، فقـال الولـد: نعـم، حتـى نضـع لـك فيـه الطعـام عندمـا تكـون مثـل جَـدِّي.

إن الاهتـمام بالوالديـن عنـد الكـبر والعنايـة بهـما هـو أقـصر الطـرق إلى الجنـة، فعـن أبي هريـرة ﷺ أن رسـول الله ﷺ قـال: «رَغِـمَ أَنْـفُ، ثُـمَّ رَغِـمَ أَنْـفُ، ثُـمَّ رَغِـمَ أَنْـفُ»، قيـل: مـن؟ يـا رسـول الله قـال:

«مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا، أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ» (صحيح مسلم)، وعن طَيْسَلَة بْن مَيَّاس، قال لي ابن عمر ﷺ: «أَتَفْرَقُ النَّارَ، وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟»، قلت: إي والله! قال: «أحيٌّ والداك؟»، قلت: عندي أمي، قال: «فَوَالله! لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الْكَلَامَ، وَأَطْعَمْتَهَا الطَّعَامَ، لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَا اجْتَنَبْتَ الكبائر». (الأدب المفرد للبخاري).

❋❋❋

حق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة

قد اهتم الإسلام ببناء الأسرة اهتمامًا كبيرًا، واعتنى بها عنايةً فائقةً تليق بدورها في إعمار الأرض، وبناء المجتمع، واستقرار الأوطان وتنميتها، وإن من مظاهر هذا الاهتمام، ودلائل تلك العناية أن شرع الله ﷻ الزواج، وجعله آية من آياته؛ ليكون طريقًا شرعيًّا لبناء الأسرة في صورة تليق بكرامة الإنسان، وتتوافق مع فطرته السليمة، قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم، الآية ٢١].

وإن من مقاصد الزواج وأهدافه - بعد شكر نعمة الله ﷻ - بقاء الجنس البشري بالإنجاب والتناسل، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[سورة النساء، الآية ١]، ويقول ﷻ مخاطبًا نبيه ﷺ، ومبينًا أن الزواج وطلب الذرية سنة الأنبياء عليهم السلام من قبله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ﴾ [سورة الرعد، الآية ٣٨].

ولا شك أن الأبناء نعمة من أجَلِّ نعم الله ﷻ على الإنسان، فهم هبة الله وعطيته، يقول ﷻ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [سورة الشورى، الآيتان ٤٩، ٥٠]، ويقول ﷻ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[سورة الكهف، الآية ٤٦]، ولقد ذكر لنا القرآن الكريم في غير موضع طلب الأنبياء والصالحين للذرية ورغبتهم فيها، فهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يدعو ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[سورة الصافات، الآية ١٠٠]، وهذا زكريا عليه السلام يدعو ربه راجيًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[سورة آل عمران،

الآية ٣٨]، وإن من صفات عباد الرحمن أن يتضرعوا في دعائهم قائلين: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان، الآية ٧٤].

والمتدبر في هذه الآيات يرى أن طلبهم ودعاءهم كان مقيّدًا دائمًا بطلب الذرية الصالحة النافعة المباركة؛ لأن الغاية والهدف من الإنجاب والتناسل ليس الكثرة والعدد، وإنما العطاء والصلاح، فكم من قلة يُرجى خيرها وبركتها، وكم من كثرة لا خير يُرجى منها، ولا بركة تُنتظر، وهذا مبدأ عام أقره القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٤٩].

ولقد راعى الإسلام في تشريعاته وأحكامه الضوابط والتوجيهات التي من شأنها أن تحفظ حقوق الطفل، وتجعله ينشأ نشأة كريمة، ويلقى رعاية كاملة في جميع مراحل حياته بداية من اشتراط الباءة في النكاح، حيث يقول النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ

الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» (متفق عليه)، مع بيان أنَّ (البَاءة) المعتبرة في النكاح - فضلًا عن القدرة البدنية - هي القدرة التامة على بناء أسرة مستقرة، والوفاء بحقها، وليس مجرد القدرة الجسدية، وإلا لما قال النبيﷺ: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ»، فالخطاب بهذه الجملة موجه لمن يمتلك قدرة جسدية، ولا يستطيع الوفاء بسائر الجوانب الأخرى المطلوبة لإقامة أسرة سوية، بما في ذلك النفقة والسكن والقدرة على تربية الأبناء.

* وإن من أهم مظاهر رعاية الإسلام للطفل أن كفل له حقه في الرضاعة الطبيعية حولين كاملين دون أن يزاحمه طفل آخر خلال تلك المدة؛ حفاظًا على حقه في التغذية الصحيحة السليمة التي من شأنها أن تساعد على بناء جسده بناءً قويًّا حتى ينمو في صحة جيدة، فقال ﷻ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾[سورة البقرة،

الآيـة ٢٣٣]، وفي ذلـك تأكيـد عـلى ضرورة أن يكـون هنـاك تنظيـم بـين الحمـل والآخـر، فالإرضـاع حـق للطفـل، حتـى إن الفقهـاء اعتـبروا أن الحمـل الـذي يحـدث في وقـت الإرضـاع إنـما هـو جَـوْرٌ عـلى حـق الطفـل الرضيـع، بـل جَـوْر عـلى حـق كل مـن الرضيع والجنـين، فسـموا لبـن الأم آنـذاك لبـن الغِيلـة، وكأن كلا مـن الطفلـين قـد اغتـال أو اقتطـع جـزءًا مـن حـق أخيـه، ممـا قـد يعـرض الطفلـين (الرضيـع، والجنـين) لمشـاكل في النمـو، قـد تصاحبهـما أو تصاحـب أحدهما طـوال حياتـه أو جـزءًا منهـا، إضافـة إلى المشـكلات الأسريـة التـي قـد تنتـج عـن تلاحـق عمليتـي الحمـل والإرضـاع، فالحمـل والإرضـاع المتتابعـان قـد يكـون لهـما أثـر سـلبي كبـير في تدهـور العلاقـة داخـل الأسرة بـين الزوجـين، وانعـكاس سـلبي عـلى حيـاة الأطفـال وعـدم القـدرة عـلى الوفـاء بحقوقهـم.

وعليـه فـالأولى أن يأخـذ كل طفـل حقـه في مرحلتـي الحمـل والإرضـاع، وكذلـك في التربيـة السـوية، مـع ضرورة الوفـاء بحقـه في المطعـم والملبـس والصحـة

والتعليم، وقد أجاز النبي ﷺ لأصحابه العزل، وهو أحد وسائل تنظيم النسل، ويقاس عليه كل ما يستحدث من الوسائل الصحية الآمنة الميسرة طبيًّا.

إنَّ التقصيرَ في حق الأبناء، وعدم الوفاء بواجباتهم في التربية يعدُّ ظلمًا لهم، والنبي ﷺ يوضح لنا أننا مسئولون عن أبنائنا الذين هم أمانة في أعناقنا، فيقول ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ». (السُّنن الكبرى للنسائي)، وفى رواية: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ» (مسند أحمد)، ويقول ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». (متفق عليه).

قد يظن البعض توهمًا أن الحديث عن تنظيم العملية الإنجابية يقتصر فقط على الجوانب

الاقتصادية وما يترتب عليها من آثار سلبية، ولكننا نؤكد أنه إلى جانب هذه الآثار الاقتصادية هناك آثار صحية ونفسية وأسرية ومجتمعية يمكن أن تنعكس على حياة الأطفال والأبوين والأسرة كلها، ثم المجتمع، فالدولة، فالزيادة السكانية غير المنضبطة لا ينعكس أثرها على الفرد أو الأسرة فحسب، إنما قد تشكل ضررًا بالغًا للدول التي لا تأخذ بأسباب العلم في معالجة قضاياها السكانية؛ لذا فإننا نؤكد أن تصحيح المفاهيم الخاطئة فيما يتصل بالقضايا السكانية يدخل في صميم تجديد وتصويب الخطاب الديني وتصحيح مساره.

ومن هذا المنطلق يمكننا فهم حديث النبي ﷺ الذي حثَّ فيه على طلب الذرية ورغب فيها بقوله ﷺ: «تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (مصنف عبد الرزاق)، وفي رواية قال ﷺ: «تزوجوا الوَدُودَ الوَلُودَ فإني مكاثِرٌ بِكُمُ الأمم» (سُنن أبي داود) فالمباهاة في الحديث ليست بالكثرة المستهلكة الضعيفة، التي تصبح

عالــة عــلى الآخريــن في طعامهــا وكســائها ودوائهــا، جاهلــة متخلفــة تعــاني الفقــر والمــرض والتخلــف بــكل أنواعــه العلمــي والثقــافي والحضــاري ، فهــذه كثــرة ســلبية تــضر ولا تنفــع، وتفســد ولا تصلــح، عــبر عنهــا النبــي ﷺ بغثــاء الســيل، بقولــه: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلى قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ». (سُنن أبي داود)، وإنــما المباهــاة في الحديــث الشريــف تكــون بالكثــرة القويــة، المؤمنــة، الصالحــة، النافعــة، العاملــة، المنتجــة، الملتزمــة أمــر ربهــا وســنة نبيهــا ﷺ التــي يقــول فيهــا: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِي خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ...» (صحيــح مســلم)، إنهــا القــوة التــي تكــون في العقــل والفكــر، والثقافــة، والمســتوى الإيــماني، والتعليمــي، والاقتصــادي، والعســكري، فالكثــرة

العدديـة القويـة هـي التـي تحتـاج إليهـا الأمـم حـين تكـون مواردهـا الاقتصاديـة متسـعة وتنقصهـا الأيـدي العاملـة أو القـوى البشريـة التـي تحافـظ عـلى ثرواتهـا، وتحمـي مقوماتهـا الاقتصاديـة، وحدودهـا، ومواردهـا الطبيعيـة، هـذه الكثـرة هـي التـي يمكـن أن نباهـي بهـا الأمـم في الدنيـا، وأن يباهـي نبينـا ﷺ بهـا الأمـم يـوم القيامـة.

ولقـد جـاءت الآثـار عـن بعـض الصحابـة ﷺ بـما يـدل عـلى فهمهـم لهـذا المعنـى مـن كلام النبـي ﷺ، فقـد رُويَ أن سـيدنا عَمْـرو بـن الْعَـاصِ ﷺ عندمـا فتـح مـصر خطـب فيهـم قائـلًا: «يَـا مَعْـشَرَ النَّـاسِ، إِيَّـايَ وَخِـلَالًا أَرْبَعًـا، فَإِنَّهُـنَّ يَدْعُـونَ إِلَى النَّصَـبِ بَعْـدَ الرَّاحَـةِ، وَإِلَى الضِّـيقِ بَعْـدَ السَّـعَةِ، وَإِلَى الْمَذَلَّـةِ بَعْـدَ الْعِـزَّةِ، إِيَّـاكَ وَكَثْـرَةَ الْعِيَـالِ، وَإِخْفَـاضَ الْحَـالِ، وَالتَّضْيِيـعَ لِلْـمَالِ، وَالْقِيـلَ بَعْـدَ الْقَـالِ، فِي غَـيْرِ دَرَكٍ وَلَا نَـوَالٍ». (شرح مشـكل الآثـار)، وفـسر ابـن عمـر ﷺ: «جُهْـد البَـلاءِ بكَثْـرَةِ العِيـالِ مَـعَ قِلَّـةِ الـشَّيءِ». (تاريـخ نيسـابور للحاكـم).

وعلى هذا فإننا نؤكد أن تنظيم الأسرة ضرورة شرعية ووطنية، وأمر مباح يصل في واقعنا المعاصر، وحالنا الراهن إلى حد الضرورة الواجبة لبناء جيل قوي مثقف قادر على بناء الحضارة، ونهضة البلاد، بفكرٍ واعٍ وعقلٍ مستنيرٍ، يقدر معنى المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه، وأفضل صورة.

إن من مظاهر رعاية الإسلام للأطفال: الأمر بالإحسان إليهم والرحمة بهم، وحسن رعايتهم، فمن المقرر شرعًا أن الرفق لا يأتي دائمًا إلا بكل خير، فالقسوة والغلظة في التربية وتقويم سلوكيات الطفل تؤدّيان في أغلب الأحوال إلى نفوره من المربّي، وبغضه، وعدم الانصياع لكلامه، وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنه ﷺ كان يحمل الحسن والحسين رضي الله عنهما على كتفيه ويلاعبهما، ويقبلهما، وكان منهجه ﷺ في التربية هو اللين والرفق، فعن أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنها أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»

(متفق عليه)، وعن ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «بَيْنَا رَسُولُ اللهﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ إِذْ أَقْبَلَ حَسَنٌ، وَحُسَيْنٌ، وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ فَحَمَلَهُمَا، ثم قَالَ: (صَدَقَ اللهُ ﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [سورة التغابن، الآية١٥]، إِنِّي رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَمْشِيَانِ، وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى نَزَلْتُ فَحَمَلْتُهُمَا». (سُنن النسائي)، وقالﷺ: «لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ». (سُنن الترمذي)، وقالﷺ لسعد بن أبي وقاصرضي الله عنه: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيّ امْرَأَتِكَ». (متفق عليه).

* ومن مظاهر رعاية الإسلام للأطفال: الأمر بالعدل والمساواة بينهم جميعًا، وقد وجه النبيﷺ الآباء والأمهات لهذا المبدأ وضرورة الالتزام به، بل قرن الأمر به بالأمر بتقوى اللهﷻ، فعَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍرضي الله عنه وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ

رَوَاحَـةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّـى تُشْـهِدَ رَسُـولَ الله ﷺ فَأَتَـى رَسُـولَ الله ﷺ، فَقَـالَ: إِنِّي أَعْطَيْـتُ ابْنِـي مِـنْ عَمْـرَةَ بِنْـتِ رَوَاحَـةَ عَطِيَّـةً، فَأَمَرَتْنِـي أَنْ أُشْـهِدَكَ يَـا رَسُـولَ الله ، قَـالَ: «أَعْطَيْـتَ سَـائِرَ وَلَـدِكَ مِثْـلَ هَـذَا؟»، قَـالَ: لاَ، قَـالَ: «فَاتَّقُـوا الله وَاعْدِلُـوا بَـيْنَ أَوْلاَدِكُـمْ»، قَـالَ: فَرَجَـعَ فَـرَدَّ عَطِيَّتَهُ.(متفـق عليـه).

ومـن العـدل والمسـاواة عـدم التفرقـة في المعاملـة بـين الذكـر والأنثـى؛ حيـث يقـول النبـي ﷺ: «مَـنْ كانَـتْ لَـهُ أُنْثَـى فَلَـمْ يَئِدْهَـا، ولم يُهِنْهَـا، ولم يُؤْثِـرْ وَلَـدَهُ عليهـا أدخَلَـه الله الجنـة». (سُـنن أبي داود).

لقـد كانـت تلـك بعـض الضوابـط والتوجيهـات التـي وضعهـا الإسـلام حمايـة للأطفـال ورعايـة لهـم؛ لينعمـوا بحيـاة كريمـة، فهـم شـباب المسـتقبل، وأمـل الأمـة المرتقـب، فعلينـا أن نـدرك جميعًـا حجـم مسـئوليتنا تجـاه أبنائنـا، وأن نقـوم بهـا خـير قيـام، وأن نعلـم أننـا مسـئولون عنهـا أمـام الله ﷻ يـوم القيامـة.

***

خطورة الإدمان والمخدرات على الفرد والمجتمع

قد كرم الله ﷻ بني آدم بخلال كريمة وأنعم عليهم بنعم كثيرة امتازوا بها عن غيرهم من المخلوقات، فقد كرمهم بالعقل، وزينهم بالفهم، ووجههم بالتدبر والتفكر، فكان العقل من أكبر نعم الله على الإنسان، به يميز بين الخير والشر، والضار والنافع، به يسعد في حياته، ويأمن في آخرته، وبه يدبر أموره وشئونه، وبالعقل يكون مناط التكليف، وهو جوهرة ثمينة، يحوطها العقلاء بالرعاية والحماية، اعترافًا بفضلها، وخوفًا من ضياعها وفقدانها، وبالعقل يشرف العقلاء، فيستعملون عقولهم فيما خلقت له، كما قال ﷻ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الحديد، الآية ١٧]. وإذا ما فقد الإنسان عقله، لم يُفَرَّق بينه وبين سائر الحيوانات والجمادات بل ربما فاقه الحيوان الأعجم بِعلة الانتفاع، فمن فقد عقله لا نفع فيه ولا ينتفع به، بل هو عالة على أهله ومجتمعه.

هـذا العقـل الثمـين، هنـاك مـن لا يعتنـي بأمـره، ولا يحيطـه بالحفـظ والحمايـة، بـل هنـاك مـن يضعـه تحـت قدميـه، ويتبـع شـهوته، فَتُعمـى بصيرتـه، كل هـذا يبـدو ظاهـرًا جليًّـا في الـذي يتنـاول كأس خمـر، أو جرعـة مخـدر، أو استنشـاق مسـكر، أو شرب مفـتر يُفقـد الإنسـان عقلـه؛ فينسـلخ مـن عـالم الإنسـانية، ويتقمـص شـخصية الإجـرام والفتـك والفاحشـة؛ فتشـل الحيـاة، ويهـدم صرح الأمـة، وينسـى السـكران ربـه، ويظلـم نفسـه، ويقتـل إرادتـه، ويمـزق حيـاءه.

ومـن هنـا فـإن اهتـمام الـشرع الحنيـف بنعمـة العقـل يتطلـب مـن المسـلم أن يحافـظ عليـه وأن لا يتنـاول مـن الأشـياء مـا يفسـده أو يعطـل وظيفتـه أو يـضره ويؤذيـه، ومـن أجـل ذلـك حـرم الإسـلام كل مـا يـضر بالعقـل فجعـل مـن مقاصـد الشريعـة التـي جـاء الإسـلام بالحفـاظ عليهـا ضرورة الحفـاظ عـلى العقـل.

هـذا والاعتـداء عـلى العقـل لـه صـور عديـدة، ومـن ذلـك: عـدوان الشـخص عـلى عقلـه بتدميـره عـن طريـق تعاطـي المخـدرات التـي تفسـده وتشـل فاعليتـه،

فتضر بالمجتمع الذي يعيش فيه؛ نظرًا لأن هذا السلوك المنحرف من شأنه أن يفقد المجتمع عضوًا كان من المفروض أن يكون عضوًا صالحًا وعقلًا مفكرًا يساعد في بناء مجتمعه وتقدمه.

فعقل كل فرد من أفراد المجتمع ليس حقًّا خالصًا له يتصرف فيه كيف يشاء، بل للمجتمع حقٌّ فيه أيضًا باعتبار كل شخص لبنة من لبنات المجتمع، وأن مصالح الأمة لا تستقيم إلا إذا كانت عقول أبنائها سليمة من الآفات؛ قادرة على التفكير السليم والتخطيط الدقيق لكل ما من شأنه أن يعود بالخير والسعادة على الأفراد والجماعات.

ومن أجل ذلك قرر الإسلام عقوبة على الشخص إذا تناول عَمْدًا ما يُفسد عقله؛ لأنه بذلك قد تسبب في ضرر المجتمع، فضلًا عن الضرر الذي جلبه على نفسه.

يقول الحسن البصري ﷺ: (لو كان العقل يشترى، لتغالى الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده) (المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي).

وقد أحسن الشاعر عندما قال:

وأفضل قَسْمِ الله للمرء عقله ... وليس من الخيرات شيء يقاربه
ويزري به في الناس قلة عقله ... وإن كرمت أعراقه ومناسبه

ولما كان الهدف الرئيس للشريعة الإسلامية الحفاظ على مصالح العباد والبلاد من المفاسد والأضرار التي تلحق بهم حرّمت كلَّ ما يذهبُ العقل أو يشوِّشُ عليه، أو يخرجه عن وعيه وإدراكه، فحُرِّمت الخمر والمخدرات بأنواعها، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة المائدة، الآيات ٩٠ - ٩٢].

وتنبيهًا إلى أهمية الطاعة في الخير وضرورة الانتهاء عن الشر نلاحظ أنه عندما سمعَ أصحابُ النبي ﷺ هذه الآيات كانتِ الوقفةُ الأخيرةُ مع الشهوةِ التي مالت إليها النفوسُ، وامتثلوا ﷺ لأمر الله ﷻ في

الحال، فأُرِيقتِ الخمورُ حتى جرت في طرق المدينةِ، وفي ذلك ما روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «كُنْتُ أَسْقِي أَبَا عُبَيْدَةَ وَأَبَا طَلْحَةَ وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ مِنْ فَضِيخِ زَهْوٍ وَتَمْرٍ، فَجَاءَهُمْ آتٍ، فَقَالَ: إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ ﷺ: قُمْ يَا أَنَسُ فَأَهْرِقْهَا فَأَهْرَقْتُهَا». (صحيح البخاري)، وهذا الموقف يدل على سرعة الانقياد والامتثال لأمر الله ﷻ.

ولقد أخبر النبي ﷺ عن هذا الزمان الذي تكثر فيه أنواع المسكرات تحت مسميات مختلفة، الأمر الذي جعل بعضهم يدعي أنه لا يشرب الخمر التي حرّمها الله ﷻ متغافلًا أن كل مسكر حرام أيًّا كان اسمه، فعن أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله يَقُولُ: «لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا». (سُنن أبي داود)، لهذا وضع الإسلام وصفًا عامًا للخمر ينطبق على أي نوع من الأنواع المعروفة، أو التي تُستحدث من المسكرات، فعَنْ عَائِشَةَ ﷺ أن رَسُولَ الله قَالَ: «كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ». (متفق عليه)، وعند

مسلم أيضًا من حديث ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا لَمْ يَتُبْ، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ». (صحيح مسلم)، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ» (سُنن أبي داود).

فمن هنا نعلم أن اسم الخمر شامل لكل ما يُسكر، مهما أحدث الناس له من أسماء، وسواء أكان مائعًا أم جامدًا، طالما توافر فيه المعنى المُحرَّم وهو الإسكار، وإنما اعتبر إسكار الجنس دون القَدْر؛ لأن الأمر لا يتعلق بقدر معين ولا بشارب معين، بل ما أسكر جنسه أيَّ شاربٍ فهو حرام كما دلت الأحاديث الشريفة المذكورة وغيرها.

فالخمر حرمها الله ﷻ، بل إن اللعنة تصل إلى كل من امتدت يده لها من قريب أو بعيد، فعن ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ: «لَعَنَ الله الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْه». (سُنن أبي داود)،

ولِمَ لا ؟! ولحظة تعاطي الخمر والمخدرات هي لحظة سقوط الإيمان من قلب المؤمن، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ». (متفق عليه)، فكيف به إن مات وهو على هذا الحال؟! أهُناك خاتمةٌ أسوأ من ذلك والعياذ بالله؟!

ويلتحق بتحريم الخمر المخدرات بجميع أنواعها ومسمياتها، وكل ما يؤثر على النشاط الذهني والحالة النفسية لمتعاطيها، وكل ما يتداوله المتعاطون ممّا يُغَيِّب العقل أو يفتِّر الجسم، يستوي في ذلك كل ما يدخل الجسم بأي طريقة كانت: بشربٍ أو شَمٍّ أو حَقْنٍ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قَالَتْ: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ». (سُنن أبي داود)، فالمخدرات داء عضال يفتك بشباب مجتمعنا فيجعلهم جثثًا هامدةً، وعقولًا خاوية، وقلوبًا فارغةً في الوقت الذي نحتاج فيه إلى رجال يلبون نداء الوطن دفاعًا عن الأرض والعرض، ويكونون لبنة أساسية في تنمية الوطن.

ولما كان للخمر والمخدرات تأثير على عقل الإنسان نهى الله ﷻ شاربها - قبل النص على تحريمها- عن القرب من العبادة أثناء سكره، وخاصة الصلاة، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [سورة النساء، الآية ٤٣].

ومن هنا يجب على الأسرة أن تحافظ على عقول أبنائها من خطر الخمر والمخدرات والسموم البيضاء، حتى نعالج المجتمع من الإدمان وينتشر الأمان، ويسود السلام، ويكون الوئام، يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [سورة التحريم، الآية ٦]، وعَنْ عَبْدِ الله بن عمر ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ

سَـيِّدِهِ وَهْـوَ مَسْـؤُولٌ عَنْـهُ، أَلاَ فَكُلُّكُـمْ رَاعٍ وَكُلُّكُـمْ مَسْـؤُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـه». (متفـق عليـه)، فينبغـي تضافـر الجهـود وقيـام الـدول والحكومـات بـكل مـا مـن شـأنه أن يجنـب شـبابنا مخاطـر الإدمـان والمخـدرات.

إن خطـر المخـدرات لا يقتـصر عـلى الأمـراض بـل تجـر صاحبهـا إلى الانحـدار في المسـتوى التربـوي والتعليمـي والأخلاقـي والاجتماعـي والاقتصـادي، وهـذا يدعونـا جميعًـا أن نقـول بصـوت واحـد مرتفـع: لا للمخـدرات، لا للإدمـان.

ويجـب عـلى المجتمـع بـأسره أن يقـف في وجـوه تجـار المخـدرات والمهربـين والمروجـين والمتاجريـن بالمسـكرات، بـل ومسـاعدة الحكومـات في القضـاء عـلى هـذه الظاهـرة التـي تهـدد مجتمعنـا في أعـز مـا يملـك - وهـم شـبابنا وأبناؤنـا - وأن تشـدد العقوبـة الرادعـة عـلى مـن يعبثـون بعقولهـم، حتـى يسـتقر المجتمـع وينعـم بالأمـن والصحـة، فقـد رُفـعَ إلى عمـر بـن عبـد العزيـز رضي الله عنه قـومٌ يشربـون الخمـر فأمـر بضربهـم فقيـل لـه: إن فيهـم صائـمًا فقـال ابـدؤوا بـه، ثـم قـال: أمـا

سمعت قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [سورة النساء، الآية ١٤٠].

ومن ثم فواجب علينا - آباءً ومسئولين، ومربين ومواطنين - استشعار خطورة هذا الداء، وأن نتعاون جميعًا على نبذه وبيان أضراره، فخطر المخدرات يستهدف المجتمع كله، في تدينه واقتصاده، وصحته وأخلاقه، وتماسك أُسره، واستقرار معيشته.

ويكفي استشعارًا لخطر المخدرات أنَّ من وقع في شباكها وذاق سمّها تأتي عليه لحظة يتحول فيها من إنسان سوي إلى كائن مسعور، يمكن أن يسرق ويقتل، أو يبيع دينه في سبيل الحصول على ما يسكت خلاياه العصبية، في مشهد يشبه حالة الجنون.

ضوابط الأسواق وآدابها

من عظمة الدين الإسلامي أنه دين شامل لكل مناحي الحياة، ولما كانت النفس الإنسانية مجبولة على حب المال الذي به قوام حياتها وانتظام أمرها ومعاشها، فقد حثت الشريعة الإسلاميةالسمحة على السعي في تحصيل المال واكتسابه من طرق مشروعة ومباحة، فأباحت كل صور الكسب الحلال التي ليس فيها اعتداء ولا ظلم ولا ضرر على الغير، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[سورة البقرة، الآية١٧٢]، وقَالَ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا، وَإِنَّ الله أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[سورة المؤمنون، الآية٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾[سورة البقرة، الآية١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ

يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ». (صحيح مسلم).

ومن ثم، فقد شرع الله ﷻ لعباده البيع والشراء وصولًا إلى الغرض، ودفعًا للحاجة، حيث يقول ﷻ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٧٥]، ولقد جرت عادة الناس منذ الأزل على إقامة الأسواق التي يتبادلون فيها منافعهم، ويحققون من خلالها مصالحهم، وجاءت آيات الذكر الحكيم لتبين أن ذلك سمة من سمات البشر، حيث يقول ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [سورة الفرقان، الآية ٢٠]، ويقول ﷻ على لسان أصحاب الكهف: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [سورة الكهف، الآية ١٩].

ولا شك أن الأسواق أحد أهم مظاهر التطبيق العملي للإسلام الحقيقي؛ فالمعاملات - بيعًا وشراء-

تُظهر صدق التدين من كذبه، ولقد جعل الإسلام للأسواق آدابًا وضوابطَ ينبغي أن يتحلى بها المسلم في بيعه وشرائه، منها: ذكر الله ﷻ وحسن مراقبته، فللسوق دعاء يقال قبل الدخول، حيث قَالَ ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَدْخُلُ السُّوقَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ». (سُنن ابن ماجه)، على أننا نؤكدُ أن ذكر الله لا يكون باللسان فقط؛ وإنما يكون أيضًا بحسن مراقبة الله ﷻ في تحري الحلال والبُعد عن الحرام.

ومنها: الصدق واجتناب الكذب: فلا يجوز للمسلم أن يكذب ليروج لسلعته، فإن هذا الترويج الكاذب للسلعة يكون سببًا في محق البركة في الدنيا، والطرد من رحمة الله ﷻ في الآخرة، ويشتد الإثم ويعظم إذا سولت له نفسه أن يُقْسِم كاذبًا ليستحلَّ مال غيره، حيث يقول نبينا ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ

مَـا لَمْ يَتفَرَّقَـا، فَـإِنْ صَدَقَـا وَبَيَّنَـا بُـورِكَ لَهُـمَا فِي بَيْعِهِـمَا، وَإِنْ كَتَـمَا وَكَذَبَـا مُحِقَـتْ بَرَكَـةُ بَيْعِهِـمَا». (متفـق عليـه)، ويقــول ﷺ: «ثلَاثَــةٌ لا يُكَلِّمهُــمُ الله يَــومَ القِيَامَــةِ، وَلَا يَنْظُـرُ إِلَيْهِـمْ: رَجُـلٌ حَلَـفَ عـلَى سِـلْعَةٍ لقَـدْ أَعْطَـى بِهَـا أَكْثَـرَ ممَّـا أَعْطَـى وَهـو كَاذِبٌ، وَرَجُـلٌ حَلَـفَ عـلَى يَمِـينٍ كَاذِبَـةٍ لِيَقْتَطِـعَ بِهَـا مَـالَ رَجُـلٍ مُسْـلِمٍ، وَرَجُـلٌ مَنَـعَ فَضْـلَ مَـاءٍ فيَقـولُ الله: اليـومَ أَمْنَعُـكَ فَضْـلِي كـما مَنَعْـتَ فَضْـلَ مـا لَمْ تَعْمَـلْ يَـدَاكَ». (متفـق عليـه)، وفي روايـة: «المُنَفِّـقُ سِــلْعَتَهُ بِالْحَلِـفِ الْـكَاذِبِ»، ويقــول نبينـا ﷺ: «مَـنْ حَلَـفَ عَـلَى يَمِـينٍ، وَهُـوَ فِيهَـا فَاجِـرٌ، لِيَقْتَطِـعَ بِهَـا مَـالَ امْـرِئٍ مُسْـلِمٍ لَقِـيَ الله وَهُـوَ عَلَيْـهِ غَضْبَـانُ». (متفق عليــه)، وكان ﷺ يقــول لأصحابــه: «إِيَّاكُــمْ وَكَثْـرَةَ الْحَلِـفِ فِي الْبَيْـعِ، فَإِنَّـهُ يُنَفِّـقُ، ثُـمَّ يَمْحَـقُ». (صحيـح مسـلم).

ومنهـا: الأمانـة والـتراضي وعـدم الغـش، والأمانـة تقتــضي الوضــوح الكامــل في البيــع والــشراء حتــى يتحقــق الرضــا التــام بــين الطرفــين، يقــول سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [ســورة النســاء، الآيــة

٢٩]، ولقد قال النبيُّ ﷺ لِعُثْمَانَ بن عفان رضي الله عنه: «إِذَا ابْتَعْتَ فَاكْتَلْ، وَإِذَا بِعْتَ فَكِلْ». (السُّنن الكبرى للبيهقي)، وَعَنِ السَّائِبِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فجعلوا يُثْنُونَ عليَّ ويذكروني، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ»؛ يَعْنِي بِهِ، قُلْتُ: صَدَقْتَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي: كُنْتَ شَرِيكِي فَنِعْمَ الشَّرِيكُ، كُنْتَ لَا تُدَارِي، وَلَا تُمَارِي». (سُنن أبي داود).

ولقد حذر النبي ﷺ أصحاب الضمائر الفاسدة التي لا تراقب ربها، وحذر كل من تسول له نفسه الخبيثة خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل من الغش فقال ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» (صحيح مسلم)، كما وجه ﷺ الشركاء إلى أن تكون الأمانة والصدق هي أساس الشراكة بينهما، فقال ﷺ: «يَقُولُ الله: أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَإِذَا خَانَ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا». (سُنن أبي داود).

ومن الآداب كذلك: عدم تطفيف الكيل والميزان، والتطفيف معناه: الاستيفاء من النّاس عند الكيل أو الوزن منهم، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو

الوزن لهم، ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير الّتي يتعامل بها النّاس، فالله ﷻ أمر بإقامة الوزن بالقسط في كتابه الكريم، حيث يقول ﷻ: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾[سورة الإسراء، الآية ٣٥]، وتوعد ﷻ من فعل ذلك فقال: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾[سورة المطففين، الآيات ١-٣].

وقد حذر نبيُّ الله شعيب عليه السلام قومه من بخس النّاس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان، كما حكى ذلك القرآن الكريم، فقال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۖ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[سورة الأعراف، الآية ٨٥].

ومنها: عدم التعدي على حقوق الآخرين، ومن ذلك نهي النبي ﷺ عن أن يبيع الإنسان على بيع

أخيه، فقال ﷺ: «لاَ يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ». (متفق عليه)، وفي رواية: «لاَ يَبِيعُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَلاَ يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ أَوْ يَتْرُكَ»، وذلك من الأدب الرفيع في البيع والشراء، فلا يزايد على من يشتري سلعة، وكذلك لا ينفِّر من سلعة أخيه فيعيبها حتى يبيع سلعته .

ومنها: عدم الاحتكار؛ ويعني حبس السلعة والامتناع عن بيعها، أو محاولة الاستحواذ عليها في السوق بقصد رفع أسعارها وزيادة تحقيق الأرباح على حساب الناس والمجتمع، لذا نهى ﷺ عن كل ألوان الاحتكار، فقال ﷺ: «مَنِ احْتَكَرَ يُرِيدُ أَنْ يُغَالِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَاطِئٌ، وَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ الله» (مسند أحمد)، وفي ذلك ما يؤكد حرمة استغلال حوائج الناس، أو التلاعب بأقواتهم وحاجاتهم الأساسية التي يحتاجون إليها، سواء في طعامهم أم في غيره، لأن ذلك يُعدّ كسبًا خبيثًا محرَّما، وهذا ما حذَّرنا منه ديننا الحنيف، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم

﴿بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾[سورة النساء، الآية ٢٩]، وقَالَ ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ» (متفق عليه).

ولله در القائل:

أيا بَائِعًا بالغشِّ أَنتَ مُعَرَّضٌ ... لدَعوَةِ مَظْلُومٍ إلى سَامِعِ الشَّكْوَى

فكُلْ مِنْ حلالٍ وارْتدِعْ عن مُحَرَّمٍ ... فَلسْت على نارِ الجحِيمِ غدًا تَقْوَى

لقد حرمت الشريعة كل صور البيع والشراء وسائر المعاملات التي تؤدي إلى التلاعب بأقوات الناس واستغلال حاجاتهم الضرورية، نظرًا لخطورتها على الفرد والمجتمع؛ لأنها تؤدي إلى انتشار العداوة والبغضاء، وتقطيع أواصر المحبة والمودة والرحمة بين جميع أفراد الأمة، ولقد حثت الشريعة على السماحة وحسن المعاملة في البيع والشراء، قَالَ ﷺ: «رَحِمَ الله رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى». (صحيح البخاري)، وقال ﷺ: «غَفَرَ الله لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ سَهْلاً إِذَا بَاعَ، سَهْلاً إِذَا اشْتَرَى، سَهْلاً إِذَا اقْتَضَى». (سُنن الترمذي).

إن كل ما يدعو للتكافل والتراحم وسد حاجات الناس هو من أولى الأولويات؛ إذ لا بد من التكافل والتراحم والتعاون بين الناس، وخاصة في وقت الشدائد والأزمات، حتى يتحقق مبدأ الأخوة بين المؤمنين الذي نادى به القرآن الكريم، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات، الآية ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة، الآية ٧١]، وقال ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ». (متفق عليه).

ولقد تجلى هذا الأمر عمليًّا في حياة الرسول ﷺ في مواقف كثيرة، منها: ما كان يفعله الأشعريون الذين ضربوا أروع الأمثلة في التكافل، قَالَ ﷺ: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ

اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ» (متفق عليه)، فهذا نموذج عملي تنتفي فيه كل مظاهر الفردية والأنانية، ويستحضر روح الجماعة والأخوة الممزوجة بفضيلة المحبة والإيثار.

ومن ثم فينبغي أن تتكاتف كل الجهود المخلصة للعمل على وضع الآليات التي تكسر الاحتكار في كل مقومات الاقتصاد، والقضاء على هذه الأدواء الخبيثة التي تهدد استقرار المجتمع، والعمل الجاد على رفع المعاناة عن الناس، وبخاصة الطبقات الأكثر فقرًا والأشد احتياجًا، وهذا واجب نتشارك فيه جميعًا، كل بما يستطيع، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٩٧].

***

الإتقان سبيل الأمم المتحضرة

إن الإتقان في العمل والاهتمام به والمحافظة عليه والتميز فيه من أهم القيم والمبادئ التي دعا إليها الإسلام، فهو أساس نهضة الأمة، به يعلو شأنها، وتستقيم حياتها، وبه يكون بناؤها بناءً قويًا شامخًا، والإتقان هو الذي تقوم عليه الحضارات، ويعمر به الكون، وكذلك هو هدف من أهداف الدين يسمو به المسلم ويرقى به إلى مرضاة الله ﷻ والإخلاص له؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، وإخلاص العمل لا يتم إلا بإتقانه.

ولقد لفت الله ﷻ أنظارنا إلى الإتقان، حيث خلق كل شيء بإتقان مُعجز، يقول ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. [سورة النمل، الآية ٨٨]، وأوجب على الإنسان السعي نحو الإحسان والإجادة، ونهاه عن الإفساد فقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة

البقـرة،الآيـة١٩٥]، وقـال: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[سـورة القصـص، الآيـة ٧٧].

ولقـد دعانـا القـرآن الكريـم في كثـير مـن آياتـه إلى إتقـان العمـل وتجويـده والإخـلاص في أدائـه؛ طلبًـا لمرضـاة الله ﷻ، ونصحًـا لعبـاده، وخدمـة وتعاونًـا بـين أفـراد المجتمـع، ووعـد عـلى ذلـك الثـوابَ العظيـمَ والثنـاء الحسـن في الدنيـا والآخـرة، وبـيَّن أن الإنسـان وهـو يـزاول عمـلًا مـا يكـون تحـت رقابـة الله العلـيم بمكنونـات الصـدور وخفايـا القلـوب، وأنـه لا يغيب عنـه مثاقيـل الـذَّر مـن أعمـال العبـاد، فهـو ﷻ يسـطرها لهـم ويسـجلها عليهـم ويجازيهـم بهـا يـوم يلقونـه، قـال ﷻ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[سـورة يونـس، الآيـة٦١]، فـالله ﷻ مطلـع عـلى جميـع أحوالكـم في حركاتكـم وسـكناتكم، فراقبـوا الله ﷻ في أعمالكـم

وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، فعلى كل عامل أن يتقن عمله ويبذل فيه الجهد لإحسانه وإحكامه تعبدًا وتقربًا إلى الله ﷻ قبل أي شيء آخر، فالله ﷻ هو الذي يراه ويراقبه في عمله، يراه في مصنعه وفي مزرعته وفي أي مجال من مجالات سعيه، يقول ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[سورة التوبة، الآية ١٠٥].

يقول الشوكاني ﷺ: قوله: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ فالأمر فيه تخويف وتهديد: أي إن عملكم لا يخفى على الله، ولا على رسوله ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله ﷻ، وفيه أيضًا ترغيب وتنشيط، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء أكان خيرًا أم شرًّا رغب إلى أعمال الخير، وتجنب أعمال الشرّ، وما أحسن قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والمراد بالرؤية هنا: العلم بما يصدر منهم من الأعمال، ثم وعد ﷻ بوعيد شديد فقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية ١٠٥] أي: وسترّدّون بعد الموت إلى الله ﷻ، الذي يعلم ما تسرّونه وما تعلنونه، وما تخفونه وما تبدونه. (فتح القدير).

وفي السنة النبوية دعوة إلى محاولة الوصول إلى الأفضل والأحسن والأتقن، ففي الصلاة يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، وفي قراءة القرآن يقرؤه الماهر به الذي بشره الرسول ﷺ بأنه مع السفرة الكرام البررة، وفي قصة مشروعية الأذان حينما رأى عبد الله بن زيد الرؤيا قال له الرسول ﷺ: «أَلْقِهِ عَلَى بِلاَلٍ، فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ صَوْتًا» (سُنن أبي داود)، ويأمر من يلي أمر الميت بقوله: «إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ» (صحيح مسلم). وهكذا بيَّنت السنة النبوية أن كل عمل يعمله الإنسان لابد وأن يكون حسنًا متقنًا، وأن يراعي الله ﷻ فيه؛ لأن الله مطلع على قلوب العباد ويحصي عليهم أعمالهم دقَّت أو جلَّت.

فالإحسان والإتقان والحرص على بلوغ الكمال في العمل قربة وطاعة لله ﷻ، وإن لم ينتفع الإنسان بذلك في الدنيا؛ لأنه فعل شيئًا يحبه الله ﷻ، فعَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ الْجَرْمِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي كُلَيْبٌ أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ أَبِيهِ جَنَازَةً شَهِدَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَأَنَا غُلَامٌ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ، فَانْتَهَى بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُمْكِنْ لَهَا، قَالَ فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «سَوُّوا لَحْدَ هَذَا» حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَمَا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ». (شعب الإيمان للبيهقي)، فها هو رسول الله ﷺ يأمر بالإتقان في موضوع لا ينفع ولا يضر، لكنه يريد أن يُربيَ المسلمين على الإجادة والإتقان، يريد تربية الشخصية المسلمة على تَلَمُّسِ طريق الكمال.

والذي يتقن عمله ويحسنه لن يضيع سعيه وجهده، بل سينال جزاءً حسنًا في الدنيا والآخرة، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف، الآية ٣٠]،

ويقول ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٩٥]، فالذي يسعى نحو الإجادة والإتقان في كل عمل يعمله صالحٌ فاضلٌ، نورُ الهدى ساطع في قلبه، حريص على حقوق الله وحقوق الناس، معتصم بالفضيلة يضع كل شيء في مكانه الجدير به واللائق له، فالمسلم مطالب بالإتقان في كل أعماله التعبدية والسلوكية وما يتصل منها بالمعايش؛ لأن كل عمل يقوم به المسلم يعد عبادة ما دام مقرونًا بنيّة التعبد لله ﷻ يُجازى عليه، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية ١٦٢]

أما الذي لا يتقن عمله ولا يراقب الله ﷻ فيه فإنه آثم، آثم بقدر ما يتسبب فيه من ضياع الأموال وإهدار الطاقات، فهذا الموظف الذي يقصِّر ويهمل ولا يتقن عمله ويرضى لنفسه أن يتقاضى أجرًا حرامًا، يخاصمه فيه الشعب كله يوم القيامة، فهذا عمر ﷺ يقول لمعيقيب عامله على بيت المال الذي

أعطى ولده درهمًا وجده وهو يكنس بيت المال: «ويحك يا معيقيب! أوجدتَ عليَّ في نفسك شيئًا؟ قال: قلت: ما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد ﷺ في هذا الدرهم؟!» (الورع لابن أبي الدنيا).

فهذا الذي يعمل في رصف الطرق فلا يراعي الله في عمله فيتسبب في فساد الطرق آثم بقدر ما يتسبب فيه من حوادث وقتل، وهذا الفلاح الذي لا هَمَّ له إلا جمع المال وفي سبيله يُهلك أجسام الناس بالمبيدات السامة غشاش قاتل، يأثم بقدر كل كبد أفسده وبقدر كل كُلْيَةٍ أفشلها، وهذا الصانع الذي لا يتقن صنعته فينتج سلعة مغشوشة آثم غشاش يدخل فيمن تبرأ منهم النبي ﷺ حين قال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا». (صحيح مسلم).

فمن كانت هذه صفتهم يتحملون وزر تأخر الأمة وتخلف البلاد، نشكوهم إلى الله ﷻ، يقول عمر رضي الله عنه: «إلى الله أشكو ضَعْفَ الأمين وخيانة

القوي» (مجمع الأمثال للميداني)، أما يعلم هؤلاء جميعًا أن الله يراهم، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾[سورة العلق، الآية ١٤]، ألم يعلموا أن الرقيب عليهم هو الله ﷻ؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[سورة النساء، الآية ١].

إن من أشد أسباب تأخرنا وإهدار الطاقات والثروات في بلادنا وجود نوعية من الموظفين أو من العاملين في المجالات المختلفة لا يبالون بما وقعوا فيه من تقصير أو تأخر أو غياب، يخرجون من أعمالهم قبل إنهاء ما كلفوا به من أعمال وأداء ما حُمِّلُوه من أمانة، متناسين أن هذه الأعمال أمانة سيسألون عنها يوم القيامة، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[سورة الصافات، الآية ٢٤].

إن وطننا الحبيب لن ينهض ويحقق آماله إلا بعد أن يزكي كل عامل قلبه بالإخلاص وينقي لُبَّهُ بالإحسان، ويعلم أنه لن تعلو مرتبته إلا بحسن العمل وجودة الإنتاج، وسلامة الصنع ونبل المقصد، وسيجد المجتمع عند ذلك في إتقان العمل ما يوفر الجهد والمال والوقت، وما يحفظ الحقوق

من الضياع والإهمال، وهنا تسعد البلاد وتنعم بهذا الإتقان، وتجني من ثمار عقول وسواعد أبنائها ما يغنيها عن غيرها ويحفظ لها عزتها وكرامتها، أما حين يسود الإهمال ويستبدُّ الكسل والخمول وينعدم الضمير فسيتجرع المجتمع مرارة ذلك، ويسهم ذلك في تخلف الأمة برمتها.

إن من أسباب تقدم غيرنا في الميادين المختلفة إتقان العمل وإحسانه وقيام كل فرد بواجبه وما يناط به من عمل على خير وجه، فمن أتقن وأحسن تقدم وإن كان كافرًا، ومن أساء وقصر شقي وتأخر وإن كان مسلمًا؛ ومن ثمَّ قيل: إنَّ الله يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً، فهذه سنة الله في خلقه، وقد قال الله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[سورة هود، الآية ١٥]، وفي نفس السورة يقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[سورة هود، الآية ١١٧]، فالله ﷻ لا يخلف سننه مع من يصلحون بها دنياهم ولو كانوا أهل

إشراك، فإذا ما أدرك المسلم أهمية الإتقان وضرورته وما يؤدي إليه من نتائج جيدة، وإذا أدرك كذلك عاقبة الإهمال والتقصير وخطورته وما يؤدي إليه من عواقب وخيمة دفعه ذلك إلى الإتقان وإجادة ما يقوم به من أعمال لينفع نفسه ومجتمعه.

ما أحوجنا اليوم إلى أن نربيَ أجيالًا على مراقبة الله ﷻ، فالمراقبة تكسب الأمة المسلمة الإخلاص في العمل، كما أنها تجرد العمل من مظاهر النفاق والرياء، فكثير من الناس يتقن عمله ويجوّده إن كان مراقبًا من رئيس له، أو قصد به تحقيق غايات له أو سعى إلى السمعة والشهرة لأنه يفتقد المراقبة الداخلية التي تجعله يؤدي عمله بإتقان في كل الحالات دون النظر إلى الاعتبارات التي اعتاد بعضهم عليها.

فأين نحن من مراقبة الله ﷻ؟! وأين نحن من الإحسان الذي ذكره النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (متفق عليه)، ورحم الله ابن المبارك حيث قال لرجل: «رَاقِبِ

الله ﷻ، فسأله عن تفسيره؛ فقال: كن أبدًا كأنك ترى الله ﷻ» (إحياء علوم الدين)، ويقول أبو بكر ﷺ: «إن عليك من الله عيونًا تراك». (مجْمَعُ الأَمْثَالِ لِلمَيْدَانيّ)، فالمسلم يستشعر دائمًا أن الله ﷻ يراه ويطلع عليه فيتقن عمله إرضاءً لله ﷻ، بغض النظر عمن يراه ويراقبه من الخلق.

إن تَمَثُّلَ هذه المعاني الإيمانية هو المخرج مما يعانيه المجتمع، فإنه من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسانٍ حارسًا يحرسه، أو مراقبًا يراقبه، وحتى لو فعلنا ذلك، فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه، لكن من السهل أن نُربيَ في كل إنسانٍ ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إلى الخير؛ لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم.

***

فهرس الموضوعات

مقدمـة	٥
أهمية التخطيط في حياة الفرد والمجتمع.	٩
حماية الشأن العام والمصلحة العامة.	١٩
مفهوم عهد الأمان في العصر الحاضر.	٣٣
فروض الكفايات ودورها في تحقيق التوازن المجتمعي.	٤٣
ترتيب الأولويات وأثره في حياة الفرد والمجتمع.	٥٥
رعاية المسنين وحماية حقوقهم.	٦٩
حق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة.	٨١
خطورة الإدمان والمخدرات على الفرد والمجتمع.	٩٣
ضوابط الأسواق وآدابها.	١٠٣
الإتقان سبيل الأمم المتحضرة.	١١٣

منافذ بيع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ ــ ٢٥٧٧٥٢٢٨
٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ش ٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ش شريف ــ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى ــ التوفيقية ــ القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر ــ الحسين ــ القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان ــ السيدة زينب
أمام دار الهلال ــ القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو ــ حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد ــ ميدان الجيزة ــ الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام ــ بالحرم الجامعى
بالجامعة ــ الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم ــ محطة المساحة ــ الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع محطة
المساحة ــ الهرم
مبنى أكاديمية الفنون ــ الجيزة

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك ــ نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبوالفدا ــ القاهرة

مكتبة الإسكندرية
٩٤ ش سعد زغلول ــ الإسكندرية
ت : ٠٣/ ٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك ــ المرحلة الخامسة ــ عمارة ٦
مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/ ٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى ــ بكلية الزراعة
ــ الجامعة الجديدة ــ الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/ ٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ ــ بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى ــ أسوان
ت : ٠٩٧/ ٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ش الجمهورية ــ أسيوط
ت : ٠٨٨/ ٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب ــ المنيا
ت : ٠٨٦/ ٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب ــ جامعة المنيا ــ المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة ــ عمارة سينما أمير
ــ طنطا
ت : ٠٤٠/ ٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا ــ المحلة

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى ــ دمنهور
مكتب بريد المجمع الحكومى ــ توزيع
دمنهور الجديدة

مكتبة المنصـــورة
٥ ش السكة الجديدة ــ المنصورة
ت : ٠٥٠/ ٢٢٤٦٧١٩

مكـتـبـة مـنـوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية
مكتبة طلعت سلامة للصحافة
والإعلام
ميدان التحرير ــ الزقازيق
ت : ٠٥٥/ ٢٣٦٢٧١٠
ت: ٠١٠٠٦٥٣٣٧٣٣٢